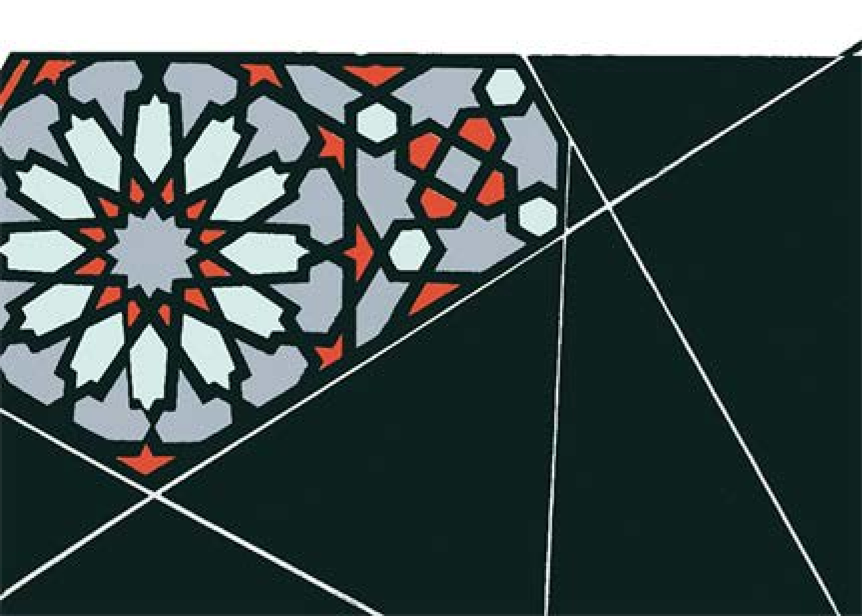
اراء ومواقف تربوية ونفسية صائبة في التراث العربي الاسلامي

د. نوري جعفر



دار الرشيد للنشـر
١٩٨٢

الجمهوريـة العراقيـة
منشورات وزارة الثقافـة والاعلام
سلسـلة دراسـات
(٣٣٤)

آراء ومواقف تربوية ونفسية صائبة في التراث العربي الاسلامي

الدكتور نوري جعفر

كلمة تمهيدية

ذكر الجاحظ ـ في احدى لمحاته ومبالغاته الطريفة ـ « أنّه ليس في الارض كلامٌ هو أمتع ولا آنقُ ولا ألَذُّ في الاسماع ولا أشَدُّ اتصالا بالعقول السليمة ولا افتق للسان ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والبُلغاء » .

وحديث الاعراب الذي أشار اليه الجاحظ منثور على هيئة شذرات هنا وهناك في كتب الادب العربي القديمة التي أتيحت لي فرصة الاستمتاع بقراءتها لاتحامى الضجر الذي يعتريني بين حين واخر من قراءة كتب التربية وعلم النفس . وقد وجدت في كتب الادب العربي القديمة بالاضافة الى المتعة الفنية الجمالية واللغوية ثروة تاريخية وتربوية ونفسية تتعذر الاحاطة بها . وانه لمن سوء الحظ ان لا تحظى مطالعة الادب العربي الا بجزء يسير من وقتي الذي استأثرت بجله قراءة ما يسمى اصطلاحا بالكتب المسلكية أو المهنية. وهذا يذكرني بملاحظات طريفة أبداها الفرزدق ، ابداها في احدى المناسبات على ما يقول الاصمعي :

قال الفرزدق ــ على ما ذكر الاصمعي ــ كنت في المجلس الذي أنشد فيه عَدِيّ بن الرِّقاع كلمته « عَرَفَ الدِّيار تَوَهُّماً فارتادها » وجرير الى جانبي . فلمّا ابتدأ عَدِيّ بالانشاد قلتُ لجرير بسَخَر : مَنْ هذا الشامي ؟ فلمّا ذُقنا كلامه يئسنا منه . فلمّا بلغ الى قوله « تُزجي أغَنَّ كأنَّ إبرَةَ رَوْقه » وعدي كالمُستريح قال جرير : أما تراه يَستكْتِبُ فيها مثلاً »؟ قلت لَكَعٌ انه يقول « قَلَمٌ أصاب من الدَّواة مِدادها » . فقال عدي « قَلَمٌ أصابَ من الدَّواة مِدادها » . فقال جرير « أكان سمعك مخبوءاً بصدره » ؟ قلتُ اسكت « شغلني سَبُّك عن جيد الكلام » . وأنا أقول شغلني علم الدماغ عن جيد الكلام . وإنْ كنت نشرت « الأصالة في شعر أبي الطيب المتنبي » واتوقع أن أنشر قريباً « الجوانب السايكولوجية في ادب الجاحظ » و « مع الحريري في مقاماته » و « ساعات مع مكسيم غوركي » وهذا الكتاب الذي هو بين يدي القاريء . وجميعها محاولات أولى تمهد الى محاولات أخرى أرجو أن تكون أعمق وأوفى .

بغداد ١٠ـ١٠ـ١٩٨١

نوري جعفر

الفصل الاول

الجوانب التربوية

- ١ -

أود أن أبين ابتداءاً ان الآراء والمواقف التربوية والنفسية الصائبة التي تنطوي عليها هذه الدراسة الموجزة قد وردت في التراث العربي الاسلامي متفرقة ومتباعدة على وجه العموم وعرضية أحيانا أثناء البحث في قضايا تتعلق بالفلسفة والادب والطب وعلم الفلك . وهي كثيرة جدا تتعذر الاحاطة بها ولم يولها الباحثون ـ على ما نعلم ـ ما تستحقه من الدراسة .

ومع ذلك ـ وبالاضافة اليه ـ فقد ورد بعض تلك الآراء والمواقف التربوية والسايكولوجية في حالات نادرة بشكل متبلور ومسجل بهيئة مستقلة عند بعض المعنيين بشؤون التربية والتعليم وعلم النفس أيضاً من حيث ارتباطه بالتربية .

يضاف الى ذلك ـ ولا يقل أهمية عنه ـ ان التراث العربي الاسلامي مفعم بأمثلة كثيرة رائعة تتضمن آراء ومواقف سياسية واجتماعية ذات مضامين تربوية بالغة الاهمية .

ان الآراء والمواقف التربوية والنفسية الصائبة التي نتصدى ـ في هذه الدراسة الموجزة ـ لابراز معالمها الكبرى [دون تعليق في الاعم الاغلب لكونها لا تحتاج الى ذلك] ينصب بعضها على طبيعة العملية التربوية ذاتها وينصب بعض آخر على المعلم نفسه ومكانته الفريدة في عملية التعليم وفي بناء الشخصية وتكوين الخلق الفاضل الرصين وينصبّ بعض ثالث على الصلة الوثيقة بين المعلم والتلميذ وبموقع التلميذ نفسه في العملية التربوية نفسها ومنزلته الاجتماعية على وجه العموم .

أما الجانب النفسي فيرتبط أوثق الارتباط بتفسير طبيعة الحياة العقلية عند الانسان في ضوء أحدث نظريات علم النفس المعاصر التي تنطلق من الدماغ باعتباره الاساس الجسمي [المادي : الفسلجي] لجميع قدرات الانسان العقلية. وقد ركزنا اهتمامنا في هذا الجانب بالذات على ما ورد من ملاحظات صائبة في رسائل اخوان الصفا .

لقد لاحظنا ـ أثناء تتبعنا لهذا الموضوع الطريف القديم الجديد ـ البالغ الاهمية ان الاهتمام بشؤون التربية وعلم النفس وفي موقع المعلم في العملية التربوية لا يقتصر على المعنيين بشؤون التعليم بمعناه المدرسي الشائع المعروف أو المعنيين بالقضايا الفكرية النظرية عموما وانما هو يتعدى ذلك أو يتخطاه أيضا فيشمل رجال السياسة والشخصيات الاجتماعية البارزة في المجتمع العربي الاسلامي ، من ذلك مثلا ان عتبة بن أبي سفيان خاطب عبدالصمد مؤدب ولده بقوله : « ليكن أول ما تبدأ به من اصلاحك بَنيَّ اصلاحك نفسك فأنَّ أعينهم معقودة بعينك ، فالحَسَنُ عندهم ما استحسنتَ والقبيح عندهم ما ما استقبحتَ . علّمهم كتاب الله ولا تُكرههم عليه فيملّوه ولا تتركهم منه فيهجروه ... ثم رَوِّهم من الشعر أعَفّه ومن الحديث أشرفه . ولا تُخرجهم من علم الى غيره حتى يحكموه .. فأنَّ ازدحام الكلام في السمع مَضَلّة للفهم.

وعلّمهم سِيَرَ الحكماء واخلاق الانبيـــاء •• وكُن لهم كالطبيب الذي لا يُعجّل بالدواء حتى يعرف الداء » ••

وأوصى هرون الرشيد علي بن الحسن مؤدّب ولده الامين بقوله : « إنّ أمير المؤمنين دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه • فصيِّر يدك عليــه مبســوطة وطاعته لك واجبة • فكُن له حيثُ وضعك أمير المؤمنين • أقرئه القرآن وعرّفه الاخبار ورَوِّه الاشعار وعلّمه السُّنَن وبصِّره بمواقع الكــلام وبَدْئه • وامنعه من الضحك إلا في أوقاته • وخُذْه في تعظيم بني هاشم اذا دخلوا عليه• وبرفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه • ولا تَمُرَّنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها من غير أن تُحزنَه فتميتَ ذهنه • ولا تُمعِنْ في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه • وقَوِّمْه ما استطعتَ بالقرب والملاينة ؛ فأنّ اباهما فعليك بالشِّدَّةَ والغِلْظَة » •

ونقل الرواة عن ابي محمد اليزيدي أنه قال :

« كنتُ أؤدّب المأمون وهو في حجر سعيد الجوهري • فأتيته يوماً وهو داخل • فوجّهتُ اليه بعض غلمانه • فأبطأ • ثم وجّهتُ اليه آخر • فأبطأ • فقلتُ لسعيد الجوهري : إنّ هذا الفتى ربما تأخّر وتشاغل بالبطالة • فقال : قَوِّمه بالأدب • فلما خرج امرتُ بحمله وضربته تسع دِررَ • فبينما هو يدلك عينيه من البكاء اذ أقبل الوزير جعفر بن يحيى فاستأذن على المأمــون • فأخــذ المأمون منديلاً فمسح عينيه وجمع ثيابه وقام الى فراشه وقعد عليه متربعــاً ثم قال : يدخل جعفر • فدخل وقمتُ انا من المجلس ، وخفتُ ان يشــكوني الى الوزير فألقى منه ما أكره ••• فلما همّ جعفر بالحركــة دعا بدابته وامر المأمون غلمانه فسعوا بين يديه • ثم سأل المأمون عني ••• وقال خذني بقيــة يومي هذا •••• فقلتَ : ايها الامير لقد خِفتّ ان تشكوني الى جعفر • ولو فعلتَ ذلك لتنكّر لي • فقال المأمون إنّا لله !! أتراني ـ يا ابا محمد ـ أُطلع الرشيد

في هذه ؟ فكيف جعفراً أُطلعه على اني احتاج الى ادب !!! يغفر الله لك ــ خذ في امرك فقد خطر ببالك ما لا تراه ابدا ولو عدتَ في كل مرة » .

وذكر الراغب الأصبهاني في محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ان ابا مريم مريم مؤدّب الامين ضرب الامين يوماً فخدش ذراعه . وعندما حان وقت الطعام تعمّد الامين ان يحسر عن ذراعه . فرآه الرشيد . فسأله فقال : ضربني ابو مريم . فبعث الرشيد اليه ودعاه . فقال ابو مريم : فخِفتُ . فلما حضرتُ قال الرشيد : ياغلام وَضّهِ . فسكنتُ . وجلستُ آكل . فقال الرشيد : ما بال محمد يشكوك ؟ قال ابو مريم : لقد غلبني خبثاً وعرامةً . فقال الرشيد أَقتلْه فلأن يموت خيرٌ من ان يموق . »

هذا طراز فريد في بابه من المواقف الدالة على مكانة المعلم الاجتماعية المرموقة . ويجري هذا المجرى ما حَدّثَ به محمد بن اسحق النديم . قال قرأتُ بخط ابي الطيّب ابن اخي الشافعي قال اشرف الرشيدعلى الكسائي ــ وهو لا يراه ــ فقام الكسائي ليلبس نعله لحاجة يريدها . فابتدرها الامين والمأمون ــ وكان مؤدّبَهما ــ فوضعاها بين يديه . فقبلً رؤوسهما وايديهما ثم اقسم عليهما ألاّ يعاودا . فلما جلس الرشيد مجلسه قال أيّ الناس أكرمُ خدماً ؟ قال الكسائي : أميرُ المؤمنين أعزّه الله . قال الرشيد بل الكسائي يخدمه الامين والمأمون .

وهناك طراز اخر من المعلمين فريد في بابه ايضا . يشير الى الجهد الفكري المضني الذي يبذله المعلم في تقويم لسان الطفل مثلاً وازالة اللّثْغَة التي يظن كثير من الناس دون سند علمي انها حصيلة نقص فسلجي في اللسان.

ذكر الرواة عن ابي الفتح احمد بن علي بن هرون المنجّم قوله : « حدثّني ابي قال : كنتُ ــ وانا صبي ــ لا أُقيم الرّاء في كلامي واجعلها غنياً . وكانت سِنّي آنذاك اربع سنين : أقل او أكثر . فدخل ابو طالب

الفَضل بن سَلمَة او ابو بكر الدمشقي الى ابي وانا بحضرته • فتكلمتُ بشيء فيه رآء • فَلَثَغتُ فيها • فقال الرجل : ياسيدي لِمَ تَدع هذا الصبي يتكلّم هكذا ؟ فقال ابي : ما أصنع وهو أَلثَغ ؟ فقال الرجل ـ وانا أسمع ما جرى واضبطه ـ ان اللّثغة عادة سوء تسبق الى الصبي اوّل ما يتكلم لجهله بتحقيق الالفاظ ••• وانا أزيل هذا عنه •• ولا ارضى بتركك له عليه • ثم قال لي أخرِج لسانك • فأخرجته • فتأمّله • وقال : الجارحة صحيحة • قُل يابُنَيّ راء واجعل لسانك في سقف حلقك • فقلتُ ذلك • فلم يستوِ لي • فمازال يرفق بي تارةً ويخشُن اخرى • وينقل لساني من موضع الى موضع في فمي ويأمرني ان اقول الراء فيه • فأذا لم يَستوِ لي نقل لساني الى موضع آخر من فمي دفعات كثيرة • وطالبني بلفظ الراء منه •••• وهكذا حتى مَرَنَ لساني وذهبت عني اللّثغة » • ان هذه الحادثة الطريفة والمهمة تجعلنا ـ نحن المعلمين ـ مطالبين في الوقت الحاضر ببذل مزيد من الجهد في عملنا التربوي •

ـ ٢ ـ

اراء فئة من المعنيين بشؤون التعليم

ابن سحنون

شرح محمد بن سحنون [٢٠٢ ــ ٢٥٦ ﻫ] [٨١٧ ــ ٨٧٠ م] آراءه التربوية في رسالة عنوانها « آداب المعلمين » وذكر رأيه في واجب المعلم ازاء التلاميذ بصورة خاصة بقوله « ومن حسن رعايته لهم ان يكون بهم رفيقاً . واذا استأهل احدهم الضرب فاعلم ان الضرب من واحدة الى ثلاث : فليستعمل اجتهاده لئلا يزيد في رتبه فوقها . وهــذا هو ادبه[٤] » اذا فرط فتثاقل من الوفاء للمعلم فتباطأ في حفظه او اكثر من الخطأ في حزبه او في كتابة لوحه من نقص حروفه وسوء تهجيه وقبح شكله وغلطه في نَقْطه » ! وهذا يعني ان المعلم يجب عليه دائماً ان يكون اميل الى الرأفة بالتلميذ وأن يســاعده على انجاز واجباته على الوجه المطلوب وان يبتعد عن اللجوء الى العقاب البدني إلاّ عند الضرورة القصوى وألاّ يتجاوز الضرب ثلاث ضربات بالعصــا خفيفــة غير مؤذية عندما يتقاعس التلميذ عن اداء واجباته التعليمية او لا يكترث بحفظ ما طلب اليه حفظه او أكثر من خطئه في الجزء المخصص من المصحف الشريف او كان خطه رديئاً .

القابسي :

ويجري هــذا المجرى ما ذكره القابسي [٣٢٤ ــ ٤٠٣ هـ] [١٠١٢ ــ ١٠٨٩ م] في بحثه التربوي الموسوم « الرسالة المفصلة لاحــوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين » : او استعراض العلاقة ــ بالتعبير الحديث ــ بين المعلمين والتلاميذ •

ابن جماعة :

كتب ابن جماعة [٦٣٩ ــ ٧٣٣ هـ] في كتابه : « تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم » بصدد العلاقة بين المعلم والتلاميذ ما نصه : « ان يلازم ــ المعلم ــ الانصاف في بحثه وخطابه وان يسمع السؤال من مورده على وجهه وان كان صغيراً • ولا يترفع عن سماعه فيحرم الفائدة • واذا سئل المعلم ما لم يعلمه قال لا اعلمه ولا ادري • واعلم ان قول المسؤل لا ادري لا يضع من قدره كما يظنه بعض الجهله • بل يرفعه » • ومعنى هذه العبارات ان يتصف المعلم بالأنصاف ويعامل جميع التلاميذ على قدم المساواة دون تمييز إلاّ من حيث الاهتمام بالدراسة • وان يسمح لهم بألقاء الاسئلة والاستفسارات مهما كانت ساذجة [بنظره] وان يكون على اتم استعداد لاظهار عدم معرفته بالامور التي لا يعرفها ، وذكر ابن جماعة أيضا بصدد موقف المعلم من التلاميذ البارزين أو المتفوقين والمتخلفين في دراستهم ما يلي :

« فمن رآه مصيبا في الجواب ولم يُخْشَ عليه شدة الاعجاب شكرَه وأثنى عليه • ومن رآه مقصّــرا ولم يُخشَ نفوره عنّفــه على قصوره وحرّضه على علو الهمة ونيل المنزلة في طلب العلم •• وعلى المعلم أيضاً الا يُظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده في مودّة أوَ اعتناء فان ذلك ربما يوحش منه الصدور وينفّر الطالب » • معنى هذا ــ بعبارة أخرى ــ أن يعطي المعلم كل ذي حق حقه فيمدح المصيب والمجدّ ويزجر المقصّر ويحثّه على بذل مزيد من الجهد •

وكتب ابن جماعة أيضا بصدد واجبات التلميذ أزاء معلمه العبارات التالية :

« ولا ينبغي للطالب أن يكرّر سؤال ما لا يعلمه ولا استفهام ما يفهمه فانه يضيع الوقت وربما يضجر المدرس ، ويجب ألا يسبق المدرس الى شرح مسألة او جواب سؤال منه أو من غيره ولا يسابقه فيه ولا يظهر معرفته به او ادراكه قبل الشيخ ... وينبغي ألا يقطع على الشيخ كلامه .. وأن يكون ذهنه حاضرا في كل وقت بحيث اذا أسره بشيء أو سأله عن شيء اشار اليه ولم يحوج الى اعادته ثانيا » . معنى هذه العبارات الطريفة والعميقة الفحوى ـ بلغة التربية الحديثة ـ ان يصغي التلميذ للمدرس ولا يضيع الوقت بتوجيه اسئلة هو عارف باجابتها سلفا ولا يسبق المعلم الى توضيح أو شرح قضية يعرفها ولا يجيب بدل المعلم على أي استفسار يحصل داخل الصف ولا يقاطع المعلم أثناء الدرس وان يركز اهتمامه في الدرس منذ بدايته حتى نهايته ولا يظهر معرفته للمعلم حتى وان كانت القضية التي يبحثها المعلم مألوفة لديه أو ليست بالجديدة عليه . وهذه صفة من صفات السلف الصالح حبذا لو اقتدينا بها في حياتنا المهنية والعامة ، وتحضرنا ـ في هذه المناسبة ـ ملاحظات طريفة وبالغة الاهمية من الناحية التربوية أشار اليها عطاء بن أبي رباح مفتي أهل مكة ومحدّثهم بقوله : « إنّي لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه فأُريه من نفسي أني لا أُحسن منه شيئاً . وان الشاب ليتحدث بحديث فأسمع له كأنّي لم اسمعه . ولقد سمعته قبل أن يولد » .

الغزالي :

شرح الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٧ هـ) آراءه التربوية في رسالة عنوانها « أيها الولد » بعث بها الى أحد طلابه مجيباً فيها عن أسئلة كثيرة وجهها اليه ورجاه فيها أن يكتب له رسالة تلازمه طوال حياته . فكتب الغزالي رسالة مطوّلة ورد فيها ما يلي : « أيها الولد : من جملة ما نصح به رسول الله صلى

الله عليه وسلم قوله : علامة إعراض الله عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه فان امرءاً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له الله لجدير أن تطول حسرته ••• ومن جاوز الاربعين ولم يغلب خيره على شره فليجهز الى النار ••

أيها الولد : النصيحة سهلة والمشكل قبولها لأنها في مذاق متبع الهوى مرّ ••• قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أشد الناس عذاباً يوم القيمة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه ••• وقال تعالى : وان ليس للانسان إلاّ ما سعى ••• فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً •••

أيها الولد : كم من ليالٍ أحييتَها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت نفسك من النوم ؟ لا أعلم ما كان الباعث فيه • إنْ كانت نيتك نيل عرض الدنيا أو جذب حطامها وتحصيل مناصبها والمباهاة على الاقران فويل لك ثم ويل •• وان كان قصدك فيه احياء شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وتهذيب اخلاقك فطوبى لك ثم طوبى لك •••

أيها الولد : العلم بلا عمل جنون • والعمل بغير علم لا يكون ••• اني رأيت بعض الخلق يظن شرفه وعزه في كثرة الاقوام والعشائر فاغتَرّ بهم ، وزعم آخرون أنه في كثرة الاموال وكثرة الاولاد فافتخَروا بها • وحسب بعضهم العز والشرف في غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم • واعتقدت طائفة انه في اتلاف المال وتبذيره • وتأمّلتُ قوله تعالى : ان أكرمكم عند الله اتقاكم • فاخترتُ التقوى •••

أيها الولد : اعلم انه ينبغي للمتأدّب المتعلّم شيخ مرشد" مربٍّ يخرج أخلاق السوء منه بتربيته ويجعل مكانها خلقاً حسناً • ومعنى التربية يشبه عمل الفلاح الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الاجنبية من بين الزرع » •

ابن خلدون :

كتب ابن خلدون [٧٣٢ ــ ٨٠٨ هـ] في مقدمته ما يلي معبّراً عن آرائه التربوية : « ان الانسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والسكن وغير ذلك • وانما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه مع ابناء جنسه ••

وعن هذا الفكر نشأت العلوم والصنائع • ثم لاجل هذا الفكر وما عليه الانسان في تحصيل ما تستوعبه الطباع فيكون الفكر راغبا في تحصيل ما ليس عنده من الادراكات فيرجع الى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو ادراك•• فقد تبيّن من ان العلم والتعليم طبيعي في البشر •• واعلم ان العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الامصار تحصيلا وتعليما هي على صنفين : صنف طبيعي للانسان يهتدي اليه بفكره ، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه •• واعلم ان تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا ، تلقَى عليه أولا مسائل في كل بــاب من الفن هي اصول ذلك الباب ، ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده ••• ثم يرجع المعلم بالتلميذ ثانية الى الفن فيرفعه عن تلك المنزلة الى رتبة أعلى منها ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه الى ان ينتهي الى اخر الفن • ثم يرجــع المعلم بالتلميذ ولا يترك عويصا او مبهما ولا مغلقا إلا وضّحه وفتح له مقفله ••• وهذا هو وجه التعليم المفيد وهو يحصل ــ كما رأيت ــ في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك » •

معنى ذلك ــ بلغة التربية المعاصرة ــ ان على المعلم ان ينتقل بالطالب المبتديء بشكل تدريجي من السهل الى الصعب فالاصعب حسب مســتوى ثقافته وان يعيد له النقاط المبهمة او الغامضة والصعبة في كل موضوع وينقله

رويدا رويدا الى القضايا التعليمية العويصة في كل موضوع ويبين له الآراء المتعددة والمختلفة ويفسح له مجال المناقشة .

المـاوردي :

اوضح الماوردي [٩٩١ ــ ١٠٣١ م] آراءه التربوية في كتابه « ادب الدنيا والدين » . وهذه فقرات تحمل بعض تلك الآراء : « ربما امتنع الانسان عن طلب العلم لكبر سنه ... وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل .. ولان يكون المرء شيخاً متعلماً اولى من أن يكون شيخاً جاهلاً » . ان هذه الفقرة تحث على مواصلة الدراسة والتتبع بصرف النظر عن كبر السن . وهذا المبدأ التربوي مستمد في الاصل من الحديث النبوي الشريف « اطلب العلم من المهد الى اللحد » .

لقد أصاب الماوردي في ملاحظاته القيمة الآنف ذكرها . وأصاب أيضاً في استشهاده بالحادثة الطريفة التالية التي مفادها ان بعض الحكماء رأى شيخاً يتوق الى طلب العلم لكنه يخجل لكبر سنه . فقال له الحكيم « أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله ؟ » وهذا يذكرنا بموقف طريف للمأمون أزاء عمه ابراهيم بن المهدي . فقد ذكر الرواة ان ابراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه . فقال له المأمون : يا عم ما عندك فيما يقول هؤلاء ؟ فقال ابراهيم : يا امير المؤمنين شغلونا في الصغر واشتغلنا في الكبر .. فقال المأمون لِمَ لا تتعلمه اليوم ؟ فقال ابراهيم : أيحسُن بمثلي طلب العلم مع كبر سنه ؟ فقال المأمون : نعم . والله لان تموت طالباً للعلم خير من أن تعيش قانعاً بالجهل . فقال ابراهيم والى متى يحسُن بي طلب العلم ؟ قال المأمون ما حَسُنت بك الحياة .

ثم يسترسل الماوردي في عرض قضايا تربوية أخرى بالغة الاهمية من وجهة النظر التربوية المعاصرة وبخاصة ما يتصل منها بضـــرورة شرح معاني

الالفاظ والمصطلحات التي ترد في الدرس لا مجرد الاكتفاء بترديد الالفاظ دون استيعاب لمعناها . فقال « وان لم يفهم التلميذ معاني ما سمع فعلى المعلم الكشف عن السبب الذي حال دون ذلك ليعلم العلة في تعذر فهمها فانه بمعرفته اسباب الاشياء وعللها يصل المعلم الى تلافي ماشذ واصلاح ما فسد . ولا يخلو السبب المانع في ذلك من أن يكون واحدا من ثلاثة .. اما أن يكون لعلة في الكلام المترجم عنها . واما أن يكون لعلة في المعنى المستودع فيها، واما أن يكون لعلة في السامع المستخرج » .

وهذا يعني ان الطالب عندما لا يستوعب فكرة من الافكار التربوية أو العلمية فان ذلك مرده ـ بنظر الماوردي ـ اما الى كون الكلمة عويصة المعنى بالنسبة له او لكون المعنى نفسه صعبا على وجه العموم أو لانه يفسرها على غير حقيقتها . فلابد ـ والحالة هذه ـ من قيام المعلم بشرح وافٍ لمعاني الالفاظ والمصطلحات التي يعبرّ بها عن محتوى مادة الدرس للتلاميذ .

وبصدد مزايا المعلم المرغوب فيها بنظر الماوردي يمكننا أن نستشهد بالفقرات التالية : « فأمّا ما يجب أن يكون عليه العلماء من الاخلاق التي هي بهم أليق ولهم ألزم : فالتواضع ومجانبة العجب لان التواضع عطوف والعجب مُنَفّر ، وهوبكل أحد قبيح وبالعلماء أقبح لان الناس بهم يقدون . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : تعلّموا العلم وتعلموا مع العلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه فيتواضع لكم من تعلمونه » .

اخوان الصفا :

وردت في رسائل اخوان الصفا الملاحظات التالية التي تحمل مجمل آرائهم التربوية : بصدد رعاية الحامل حفظاً لصحتها وصحة الجنين [وهو ما أخذت به الدول المتقدمة المعاصرة ـ وردت العبارات الشيقة الآتية : « قد تبين مما ذكرناه ان مكث الجنين في الرَّحِم تسعة أشهر انّما لكي تتم البنية

في هذه الدنيا .. وقد أوصى الاطباء الحوامل من النساء بالرفق بأنفسهن في حركتهن وتصرفاتهن باعتدال وبوسائط بلا افراط ولا تقصير كيما يسلم الجنين من الآفات العارضة هناك ويخرج الطفل سالماً الى هذه الدنيا » . وورد بصدد اثر البيئة في نشوء الحياة العقلية عند الفرد منذ الطفولة ما يلي « اعلم يا أخي - أيدك الله وإيانا بروح منه - أنّ مثل افكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم واعتقاد من الآراء كمثل ورق نقي لم يكتب فيه شيء . فاذا كُتب فيه شيء - حقاً أو باطلاً - فقد شغل المكان ومنع أن يُكتَب فيه شيء آخر . ويصعب حكه ومحوه . فهكذا حكم أفكار النفوس ... فاذا كان الامر كذلك فينبغي لك - أيها الاخ - ان لا تُشْغَل بإصلاح المشايخ الهرمة الذين اعتقدوا من الصبّا آراءً فاسدة وعادات رديئة واخلاقا وحشية، فإنهم يتعبونك ثم لا يتعلمون . وان صلحوا قليلاً قليلاً فلا يفلحون . ولكن عليك بالشباب السالمي الصدور الراغبين في الآداب المبتدئين بالنظر في العلوم . واعلم ان كل نبي بعثه الله فأول من كذّبه مشايخ قومه » .

وحول القدوة الحسنة والاثر العميق الذي تتركه في سلوك الطفل تصرفات المشرفين على تربيته في الاسرة وخارجها وحول امعان الفكر في مواد الدراسة ومبدأ التعلم بالعمل او بالممارسة والتطبيق كتب اخوان الصفا ما يلي: « واعلم يا أخي - ايدك الله وايانا بروح منه - بأن العادات الجارية بالمداومة فإنّها تُقوّي الاخلاق المشاكلة لها . كما ان النظر في العلوم والمداومة على البحث والدرس لها والمذاكرة فيها تُقوّي الحذق بها والرسوخ فيها . وهكذا وهكذا المداومة على استعمال الصنائع يُقوّي الحذق والاستاذية فيها . وهكذا جميع الاخلاق والسجايا . والمثال في ذلك ان كثيرا من الصبيان اذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح وتربّوا معهم تَطبّعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم . وعلى هذا القياس يجري حكم سائر الاخلاق والسجايا التي ينطبع عليها الصبيان منذ الصغر بأخلاق الآباء والامهات

والاخوة والاخوات والاتراب والاصدقاء والمعلمين والاستاذين المخالطين لهم في تصاريف أحوالهم ... وعلى هـــذا القياس الآراء والمذاهب والديانات جميعاً » .

وحول أهمية المعلم في حياة التلاميذ كتب اخوان الصفا ما يلي : «واعلم ان المعلم والاستاذ أب لنفسك وسبب نشوئها وعلّة حياتها . كما ان والدك أب لجسدك وكان سبباً لوجوده وذلك ان والدك اعطاك صورة جسدانيــة ومعلمك أعطاك صورة روحانية . وذلك ان المعلم يغدي نفســك بالعلوم ويربّيها بالمعارف . فَسَلْ يا أخي ربّك أن يوفّق لك معلماً رشــيداً هادياً سديداً ... واعلم يا أخي أن من سعادتك بأن يتفق لك معلم ذكي جيد الطبع حسن الخلق صافي الذهن محب للعلم طالب للحق غــير متعصّب لرأي من المذاهب » .

وبصدد الاخلاق العلمية وردت العبارات التالية : « واعلم يــا أخي ــ أيدك الله وايانا بروح منه ــ بأن طالب العلم يحتاج الى سبع خصال ... فمنها السؤال والصمت ثم الاستماع ثم التفكير ثم العمل به ... ومنها ترك الاعجاب بمحاسنه ... وان العلم يكسب صاحبه عشرة خصال محمودة فمنها الشرف ... والعزة والقوة ... والحياء ... والمهابة ... واعلم يا أخي ان للعلماء ــ مع كثرة فضائل العلم ــ آفات وعيوباً ... فمنها الكبر والعجب والافتخار والتعصب ... وترك العمل بموجبات العلم وعجب المرء برأي نفسه والأنفة من قبول الحق وترك الاقرار به ... والطيش في التصرف ...والغش والمكر في المعاملة والاستصغار لابناء الجنس وأقاويل الزور » .

وحول قواعد الجدل العلمي وتبادل الرأي في النقــاش للوصول الى الحقيقة مع مراعاة الاختصاص كتب اخوان الصفا : « اعلم ان كل مسألةتنازع فيها اثنان أو جماعة فلا تخلو من أن يكونوا من أهل الصناعة التي المسألة منها أو يكونوا من غير أهلها . فان كانوا من غير أهلها فكلامهم فيها على غير أصل

مقرٌّر منهم • وان كان احدهما من غير أهلها فان منازعته لصاحبه تعدٍّ وظلم، وكلام صاحبه معه أيضـا تخَلّـُف منه اذ كان يجادل مع من ليس من أهل صناعته • وان كانا من أهل الصناعة فلا يخلوا من أن يكونا متسـاويين في الدرجة فيها أو متفاوتين • فان كانا متفاوتين فحكمهما مثل ما تقدّم ذكره من ذكر حكم الاولين • وان كانا متساويي الدرجة في تلك الصناعة فسبيلهما ان يؤخذا فيما اختلفا فيه الى قوانين تلك الصناعة واصولها ويقيسا عليها تلك المسألة ان كانت من فروعها • وان لم يكن في قوة نفوسهما اســتخراجها فسبيلهما ان يتحاكما الى من هو أعلى درجة منهما في تلك الصناعة ليحكم بينهما فيرضيا بحكمه ان لم يكن في قوة نفوسهما استخراجها من الاصـول فليس لهما الا الترك لتلك المسألة والسكوت عنها • فان لم يفعلا ما وصفنا في الجدال فسيكون ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما : كلما ازدادا الحاحـا ازدادا خلافا على خلاف » •

وحول انفتاح الذهـن والنقد الذاتي ـ بالتعبير الحديث ـ وهو ما تطمح التربية الحديثة نحو تحقيقـه وردت عبارات جريئـة جدا في ضـوء قرينتها التاريخية وظروفها الاجتماعية السائدة انذاك ـ وفي الوقت الحاضـر ايضا في كثير من المجتمعات المعاصرة ـ بحيث ان المرء يتهيب حتى عنـد الاستشهاد بها :

« اعلم ـ ايها الاخ البار ـ ان الحق في كل دين موجود ••• وان الشبهـة دخولها على كل انسان جائز ممكن •••• فلا تتمسك بما أنت عليه من دينك ومذهبك واطلب خيرا منه • فان وجدت فلا يسعك الوقوف على الاول • ولكن واجب عليك الاخذ بالاخير الافضل والانتقال اليه • ولا تشغلن بذكر معايب مذاهب الناس ولكن انظر هل لك مذهب بدون عيوب ؟

واعلم ان الانسان العاقل قد يخفى عليه عيوب مذهبه كما تخفى عليـه مساوىء خلاله وقبائح أفعاله وسيئآت أعماله وتسنح له عيوب غيره » • هذه

العبارات أكثر دقة وجراءة ــ بنظرنا ــ من العبارات المماثلة التي كتبها الفيلسوف البريطاني جون لوك [١٦٣٩ ــ ١٧٠٤] ــ الذي جاء بعد اخوان الصفا بأكثر من ستة قرون ــ في رسالته الذائعة الصيت ألتي ترجمة عنوانها « التساهل » او « التسامح » . والعبارات المشار اليها ترتبط ارتباطا وثيقا بعبارات أخرى مماثلة وردت في أماكن شتى من الرسائل : « وبالجملة ينبغي لاخواننا ــ أيدهم الله تعالى ــ ان لا يعادوا علما من العلوم أو يهجروا كتابا من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب » . معنى هذا انهم ضد التعصب الذميم لا ضد اعتناق الآراء والمبادىء السليمة . ولهذا نجدهم يقفون بحزم ضد الآراء الفاسدة : « واعلم يا أخي ان الآراء الفاسدة كثيرة .. وان أهلها جم غفير .. وان أضرَّهم بالعلماء مَنْ اذا سئلوا عن اشياء هي موجودة مقدَّرة بين الناس ومعروفة مشهورة عند الحكماء لا يحسنون أن يجيبوا عليها .. بل يخوضون في طغيانهم وجهالاتهم .. يكتبون في ابطالها المقالات المزخرفة ويعارضون الحكماء ويشنّعون عليهم » . وهذا يذكرنا بحادثة طريفة تتعلق بثمامة بن اشرس ذكرناها في مقالتنا عن الجاحظ .

وحول أهمية العلم في الحياة وحول التعاون المثمر في سبيل نشره وردت العبارات الممتعة التالية : « واعلم ان مواهب الله جلَّ اسمه كثيرة لا يُحصى عددها ولكن يجمعها جنسان تحت كل جنس أنواع كثيرة أحدهما قِنْيَة جسدانية والاخرى قِنْيَة نفسانية . فمن القنية الجسدانية احدها المال . ومن القنية النفسانية أحدها العلم . والناس في هاتين النعمتين العظيمتين على منازل اربع : منهم من قد رُزِقَ الحظ من المال والعلم جميعا . ومنهم من رزق المال ولم يرزق العلم ومنهم من رزق العلم ولم يرزق المال . فينبغي لاخواننا ممن قد رزق المال والعلم أن يؤدي شكر ما انعم الله جلَّ وعز به عليه بأن يضم اليه أخا من اخوانه ممن حرمهما جميعا ... ولا ينبغي أن يمن عليه بما ينفق عليه من مال ولا يستحقره .. وأمّا مَنْ رُزق المال ولم يرزق العلم من اخواننا فينبغي

له أن يطلب أخا ممن رزق العلم ويضمه اليه ويواسيه : هذا من ماله ، وهذا من علمه • ويتعاونان على اصلاح أمر الدين والدنيا • وينبغي للاخ ذي المال ان لا يمن على الاخ ذي العلم بما يواسيه من ماله ولا يحتقره لفقره •• وينبغي للاخ ذي العلم والحكم ان لا يحسد أخا ذا مال ولا يستحقره لجهله ولا يفخر عليه بعلمه ولا يطلب منه عوضا فيما يعمله • لان مثلهما في صحبتهما وتعاونهما ــ هذا لهذا بماله وهذا لهذا بعلمه ــ كمثل اليد والرِّجل في اتصالهمابالجسد ووحدتهما وتعاونهما في اصلاح الجملة • وذلك لان اليدين لا تطلبان من الرِّجلين ــ اذا احتذيتا نعلا او أخرجتا منهما شوكة ــ جزاءً ولا شكورا • وكذلك الرِّجلان لا تطلبان من اليدين ــ اذا بلغاتهما الى الموضع الذي شاءتا وهربتا من خوف القطع ــ جزاءً ولا عوضا ، لانهما آلات جسد واحد وقوام أحدهما بالآخر • وهكذا أيضا السمع لا يمن على البصر اذا اسمعه النداء • ولا البصر على السمع اذا آراه المنادي • وهكذا ينبغي أن يكون تعاون اخوان الصفا في طلب الدين والدنيا ، ذلك لان معاونة الاخ ذي العلم للاخ ذي المال بعلمه في صلاحالدين كمثل رجلين اصطحبا في الطريق في مفازة • احدهما بصير خفيف البدن معه زاد ثقيل لا يطيق حمله • والآخر أعمى قوي البدن ليس معه زاد • فأخذ البصير بيد الاعمى يقوده خلفه ، واخذ الاعمى ثِقَل البصيرفحمله على كتفه ، وتواسيا بذلك الزاد وقطعا الطريق • ونَجَوا معا ، فليس لاحدهما أن يمن على الآخر في انجائه من التَّهلُكة في معاونته لانهما نجَوا معا بمعاونة كل واحد منهما صاحبه • والمعاونة لا تكون الا بين اثنين أو أكثر • والاخ الجاهل كالاعمى • والاخ الفقير كالضعيف • والاخ الغني كالقوي • والاخ العالم كالبصير • والطريق هو صحبة النفس مع الجسد • والمفازة هي الحياة الدنيا ، والنجاة الآخرة » •

وبصدد تمحيص معاني الكلام تفاديا للالتباس أو الغموض او الايهام في المعنى وردت العبارات التالية : « واعلم ان الحق هو غاية ليست وراءها نهاية

ولكن دونها أمور متشابهة مشكلة . واعلم ان الالفاظ محتملة المعـاني وان الاوهام تذهب في طلبها كل مذهب . فينبغي اذا سمعت لفظة محتملة للمعاني ألا تحكم عليها دون أن تتبين بعقلك كل المعاني التي تحتملها تلك اللفظة لعلك تفهم الغرض الاقصى الذي هو الصواب . وتبلغ الغاية التي هي الحق ... ونريد أن نضرب لك مثلا ليكون قياسا على ما قلنا ووصفنا : ذكر في المثال أنه كان رجلان اصطحبا في طريق على سفر . فلمّا انتهيا الى شاطيء نهر قعدا للغداء . فأخرج كل واحد زاده ، فكان مع احدهما رغيفان ومع الآخر ثلاثة أرغفة ، فكسراها في موضع واحد ليأكلاها اذ مَرَّ بهما مجتاز فدعواه الى طعامهما فأجاب وجلس وأكل معهما ، فلما فرغوا قام ورمى بين يديهما خمسة دراهم وقال : اقسماها بينكما بالسوية ، ومضى هو لسبيله . فقال صـاحب الرغيفين لصاحبه : لك النصف ولي النصف الباقي لانه قال بالسوية . وقال صاحب الثلاثة أرغفة : بل العدل أن يكون لي ثلاثة دراهم ولك درهمان لانه قال بالسوية بحسب الرغفان ، فتنازعا وتخاصما وتحاكما الى قاضـي فحكم فحكم باربعة دراهم للاول وبدرهم واحد للثاني . وكان حكمه سليماً » . ومن طريف يروى في هذا الباب ان القاضـي شُريك بن عبدالله زار المهدي فأراد المهدي ان يبخره فقال للخادم هات للقاضي عودا . فجاء الخادم بالعود الذي يتلهّى به ووضعه في حجر شـريك . فاضطرب شريك وقال ما هـذا يا أمير المؤمنين ؟

فقال المهدي : عود أخذه صاحب العسس البارحة فأحببنـا أن يكون كسره على يدي القاضي .

وذكر الرواة أيضا ان رجلا من بني كلاب[وقيل من بني عامر بن صعصعة] قدم على أحد ملوك اليمن وصَعَدَ على السطح لمقابلته . فلمّـا رآه قال « ثِبْ » . فقال الرجل : ليعلم الملك أني سـامع مطيـع . فوثب فَدُقَّتْ عنقه . فقال الملك : ما شأنه ؟ قيل أبَيْتَ اللعْنَ ان الوثب في كلام نِزار

يعني الوثوب الى اسفل وليس القعود • فقال الملك ليست عربيتنا كعربيتهم : من دخل مدينتنا فعليه ان يتكلم لغة حمير •

ومن طريف ما يروى في هذا الباب ان خالد بن الوليد قال لاهل الحيرة: اخرجوا اليَّ رجلا من عقلائكم أسأله عن بعض الامور • فاخرجوا اليه عبدالمسيح بن عمرو بن قيس بن حيّان بن بُقَيْلَه° وكان شيخا طاعنا في السن • فقال له خالد : من أين أقصي أثرك ؟ قال من صُلب أبي • قال فمن اين خرجتَ ؟ قال من بطن أمي • قال فعلامَ أنت ؟ قال على الارض • قال ففيمَ أنت ؟ قال في ثيابي • قال ما سِنُّك ؟ قال عظم • قال : أتعقِل لا عَقَلْتَ ؟ قال : أيْ والله وأُقيِّد • قال ابن كم أنت ؟ قال ابن رجل واحد • قال كم اتى عليك من الدهر ؟ قال لو أتى عَلَيَّ شيء لقتلني • قال ما تزيدني في مسألتك الا غَمّاً !؟ قال ما اجبتُك الا عن مسألتك •

ويجري هذا المجرى ما ذكر الرواة عن رجل سأل هشام بن عمرو القرطبي عن عمره بقوله : كم تَعُدُّ ؟ فقال هشام من واحد الى الف الف أو اكثر • فقال الرجل لم أرد هذا • قال هشام فما أردتَ ؟ قال كم تعد من السن ؟ قال الرجل : اثنين وثلاثين سناً • قال لم أرد هذا • قال فما أردت ؟ كم لك من السنين ؟ قال ما لي فيها شيء • كلها لله • قال فما سِنُّك ؟ قال عظم • قال فابن كم أنت ؟ قال ابن اثنين : أب وأم • قال فكم أتى عليك ؟ قال لو أتى عليَّ شيء لقتلني • قال : فكيف أقول ؟ قال قل كم مضى من عمرك ؟

وقيل لعمرو بن عبيد ما البلاغة ؟ قال ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار وبصَّرك مواقع رُشْدك وعواقب غَيِّك • قال السائل ليس هذا أريد • قال عمرو : من لم يُحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع • ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول • قال ليس هذا أريد • قال عمرو : قال رسول الله « انا معشر الانبياء فينا بِلكْء» قال الرجل ليس هذا أريد • قال : كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون من فتنة السكوت

وسقط الصمت . قال الرجل ليس هذا أريد . قال عمرو يا هذا فكأنك تريد تحبير اللفظ في حسن الافهام !؟ قال نعم .

ومن طريف ما يروى أيضا في هذا الباب ـ وهو كثير منثور في كتب الادب العربي القديمة المشهورة ـ ان بدويا جاء المدينة شاكيا الى حاكمها . فبلغها مع الليل . ولما قصد الحاكم في قصره . قال له الحارس ان الحاكم الآن في طرب بالقانون ولا يستطيع أن يراكَ . فانصرف ، ثم جاء الصباح فرفع شكواه فرفضها الحاكم . فقال البدوي : بِمَ رُفِضَتْ ؟ قالوا بالقانون . فاستغرب وقال بتهكم لا يخلو من مرارة : « ما هذا القانون الذي تطربون به بالليل وتحكمون به بالنهار ؟! » .

وذُكر أنّ الجاحظ فسر كلمة « تلحن » في البيت الثالث من أبيات مالك بن اسماء بن خارجة في وصف جارية :

أمُغَطّيَ مِنّي على بصري للحبّ أمْ أنتِ أكملُ الناس حُسنا

وَحَديثٍ ألَذّهُ مِمّا يَنْعَتُ الناعتونَ يوزنُ وَزْنا

مَنطقٌ صائبٌ وتَلْحَنُ أحياناً وخَيْرُ الكلام ما كان لَحْنا

بقوله « يُستَظرف من الجارية أن تكون غير فصيحة وان يعتري نطقها اللحن » . وعندما عوتب الجاحظ وقيل له إنّ « تَلْحَنَ » هنا بمعنى تُوري عن الشيء من فِطنتها وذكائها قال « لقد فَطِنتُ لذلك بَعْدُ » . فقيل له فَغَيّره . فقال كيف لي بما سارت به الركبان ! ؟

واذا كان الجاحظ ـ العالم اللغوي الفذ ـ قد أخطأ في تفسير معنى الفعل « تَلْحَنُ » دون النظر الى قرينته في البيت فما بالك بمن هم دون الجاحظ بمراتب في مستوى ثقافتهم اللغوية !؟

أمّا المجاز بأنواعه لا سيما الكناية والتورية فهو باب واسع رافقته حوادث ممتعة منها مثلا : ان رجلا قال أتيت الجمحي استشيره في امرأة أردت

التزوج بها . فقال : أقصيرة هي أم غير قصيرة ؟ قال الرجل فلم أفهم ذلك . فقال لي كأنك لم تفهم ما قلتَ !! لقد أردتُ بقولي قصيرة : أهي قصيرة النسب تعرف بأبيها أو جدها . وذكر الرواة ان عبدالله بن سلام رأى ثوباً « مُعَصفَرا » على رجل فقال له « لو أن ثوبك في تَنور أهلك او تحت قِدْرهم كان خيراً » . فذهب الرجل وأحرق ثوبه . وعندما عوتب عبدالله بن سلام على ذلك قال انما أردت : « لو صرفت ثمنه الى دقيق تخبزه أو حطب تطبخ به كان خيراً » . وقيل أيضا ان امرأة وقفت على قيس بن عُبادة فقالت: « أشكو اليك قلة الفأر في بيتي » . فقال : املأوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً .

ومن طريف ما يروى أيضا في هذا الباب ان امرأة جاءت الى عمر بن الخطاب فقالت : يا أمير المؤمنين ان زوجي يصوم النهار ويقوم الليل واني أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله ، فقال نِعْمَ الزوج زوجك فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب . فقال كعب بن سَوْر ــ وكان حاضرا ــ يا أمير المؤمنين انها تشكو زوجها في مباعدته اياها عن فراشه . ففطن عمر حينئذ وقال له قد وَلّيتك الحكم بينهما .

وكثيراً ما يحصل في الكناية ــ عند الشعراء مثلا ــ ابدال لفظة يُستَهجَن ذكرها بلفظة أخرى بعيد معناها عن المعنى المقصود : من ذلك مثلا :

فَصِرْنا الى « الحسنى » ورَقّ كلامنا
ورُضْتُ فذلّتْ صعبةٌ أيَّ إذلالِ

ويقول شاعر آخر :

نسوّد أعلاها وتأبى اصولها
وليس الى ردِ الشباب سبيل

ويدخل في هذا الباب ــ من طرف خفي ــ مواربة الشعراء :

ذكر الرواة ان عبدالملك بن مروان سأل أحد شعراء الخوارج عن معنى قوله :

فمنّا زُهيرٌ والبُطَيْنُ وقَعْنَبٌ
ومِنّا اميرُ المؤمنين يزيدُ

فقال الشاعر مواربا ، ومداجياً انما قلت يا أمير المؤمنين :

فمنا زُهيرٌ والبُطَيْنُ وقَعننَبٌ
ومِنّا ــ أميرَ المؤمنين ــ يزيدُ

والخطاب لك يا أمير المؤمنين • فعفا عنه وأجازه •

وخبر هرون الرشيد مع مسلم بن الوليد مشهور • فقد ألحّ الرشيد في طلب مسلم لانه رُمِيَ عنده بالتشيع لآل أبي طالب • فلما أُتِيَ بـه قال له الرشيد أنت القائل :

أنِسَ الهوى ببني العمومة في الحشا
وأراه يَطْمَحُ عن بني العباسِ

قال مسلم بل أنا الذي يقول يا أمير المؤمنين :

أنِسَ الهوى ببني العمومة في الحشا
مستوحشاً من سائر الايناسِ

واذا تكاملتِ الفضائلُ كنتمُ
أوْلى بذلك يا بني العباسِ

وقضية الرشيد وابي نؤاس وخالصة معروفة :

خالصة جارية من جواري الرشيد كانت حسناء . وقد مدح أبو نواس هرون الرشيد بقصيدة فلم يلتفت اليه لانشغاله بهذه الجارية . فاشتد الغيظ بأبي نواس وانصرف وهو واجد على خالصة . وكتب على أحــــد ابواب المقصورات .

لقد ضـــاع شعري على بابكم   كما ضاع عِقْدٌ على خالصــــــه

وبعد أن علم الرشيد استدعاه لمعاقبته . فاتجه أبو نواس الى ناحيةالباب فمحا تجويف العين في الموضعين من « ضاع » فصـــار أول العين مثل الهمزة وصار البيت هكذا :

لقد ضـــاء شعري على بابكم   كما ضاء عِقْــدٌ على خالصـــه

أما الغموض أو الالتباس في المعنى الذي يحصل أحياناً بفعل التقــديم والتأخير وبخاصة في الشّعر فهو كثير وممتع أيضاً .

ولدى أبي الطيّب المتنبي منه الشيء الكثير . قال مثلا في معرض مدحه شجاع بن محمد الطائي المنبجي :

أنّى يكون أبــا البريّــة آدمٌ   وأبوك والثقلان أنت محمـــــــد

وقال أيضا من قصيدة في مدح أبي العشائر :

فأكبروا فِعْلَه وأصغَــرَه   أكبــرُ من فعله الذي فَعَلَه

وقال أيضا وهو يمدح أبا الحسين علي بن أحمد المُرّيّ :

حَسَـــنٌ في عيون اعدائــه أقبَحُ

من ضيفــــه وأنـــه السّـــوام

وقال الجواهري وهو يعرّض بالفئة الحاكمة في العهد الملكي :

أتــمْ اللهُ واحــــــــداً   وهو لا شــكَّ أرْبَــــعُ

مع العلم ان التقديم والتأخير في اللغة العربية له مواقعه المتبلورة والمتفق عليها بين المختصين من حيث الاساس وعلى وجه العموم . ولكن تعسف بعض الكتاب والشعراء في استخدام التقديم والتأخير في غير مواقعه المتفق عليها يثير البلبلة والارتباك وغموض المعنى كما اتضح ذلك في بيت الجواهري وأبيات المتنبي المار ذكرها .

وللغة العربية مزايا عجيبة وطريفة أخرى كثيرة تقع خارج نطاق هذه الدراسة لعل من المفيد أن نشير الى بعضها منقولا عن الجزء الاول من كتاب دلائل الاعجاز للجرجاني (ص ٩١ ـ ٩٥ ، ٨٦ و ١١١ ـ ١١٣)

« ان أغراض الناس تختلف في ذكر الافعال المتعدية : فهم يذكرونها تارة ومرادهم أن يقتصروا على اثبات المعاني التي اشتقت منها للفاعلين من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين . فاذا كان الامر كذلك كان الفعل المتعدي كغير المتعدي مثلا في أنك لا ترى له مفعولا لا لفظاً ولا تقديراً . ومثال ذلك قول الناس : « فلان يحل ويعقد . ويأمر وينهى . ويضر وينفع . وكقولهم : هو يعطي ويجزل . ويقري ويضيف » . والمعنى في جميع ذلك على اثبات المعنى نفسه للشيء عنى الاطلاق وعلى الجملة من غير أن يتعرّض لحذف المفعول . فان الفعل لا يعدى هناك لان تعديته تنقض الغرض وتغيّر المعنى .. لكن في بعض الحالات يكون اظهار المفعول هو الاحسن وذلك كقول الشاعر :

ولو شِئتُ أنْ أبكيْ دماً لبكيته

عليه ولكنْ ساحةُ الصبرِ أوْسَعُ

... وسبب حسنه أنّه كأنّه بِدْع عجيب أن يشاء الانسان أن يبكي دماً . فلمّا كان ذلك كان الاولى ان يصرح بذكره ويقرره في نفس السامع ويؤنسه به ... ذكروا ان الكندي ركب يوماً الى العباس وقال له اني لاجد في كلام العرب حشواً . فقال له أبو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟

فقال أجد العرب يقولون : « عبدالله قائم » ثم يقولون « ان عبدالله قائم » • ثم يقولون « ان عبدالله لقائم » • فالالفاظ متكررة والمعنى واحد • قال أبو العباس بل المعاني مختلفة لاختلاف الالفاظ • فقولهم : « عبدالله قائم » إخبار عن قيامه • وقولهم « ان عبدالله قائم » جواب عن سؤال سائل •وقولهم: « ان عبدالله لقائم » جواب انكار من ينكر قيامه » •

الجاحظ :

لقد مرّ بنا الاستشهاد بعبارات كثيرة تحمل آراءاً تربوية لطائفة من المعنيين بشؤون التعليم في التراث العربي الاسلامي • ونود ان نختتم هذا الجانب من جوانب هذا البحث بالاستشهاد بعبارات تحمل آراء الجاحظ التربوية كماوردت في رسالته الموسومة « في المعلمين » التي عثرنا عليها مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني : كتب الجاحظ في صدر كتابه « في المعلمين » العبارات التالية : وفيها خروج ضمني على موقفه الذي اتسم بازدراء بالمعلمين كما ورد ذلك في اماكن متعددة من « كتاب البيان والتبيان » : قال الجاحظ يخاطب نفسه على ما نظن :

« اعانك الله على سورة الغضب وعصمك من سرف الهوى وصرف ما اعارك من القوة الى حب الانصاف ••• فقد استعملت في المعلمين نوف السفهاء وخطل الجهلاء ومناقشة الابذياء ومجانبة سبل الحكماء ••• »

ويستطرد الجاحظ فيصف اهمية الكتاب الذي هو مادة المعلم ودليله ومرشده في مهنته ويعود ثانية الى نقد موقفه السابق من المعلمين فيقول :

« ولولا الكتاب لاختلّت اخبار الماضين وانقطعت آثار الغائبين وانما اللسان للشاهد لك والقلم للغائب عنك وللماضي قبلك والعابر بعدك فصار نفعه أعم والدواوين اليه أفقر والملك المقيم بالواسطة لا يدرك مصالح اطرافه وسد ثغوره وتقويم سكان مملكته إلاّ بالكتاب • ولولا الكتاب لما تمّ تدبير

ولا استقامت الامور ورأينا عمود صلاح الدين والدنيا انما يعتدل في نصابه ويقوم على اساسه في الكتاب والحساب . وليس علينا لاحد في ذلك من المنة بعد الله الذي اخترع لنا ودلنا عليه واخذ بنواصينا اليه ما للمعلمين الذين سخرّهم لنا ووصل حاجتهم الى ما في ايدينا . وهؤلاء الذين هجوتهم وشكوتهم وحاججتهم وفحشت عليهم والزمت الاكابر ذنب الأصاغر وحكمت على المجتهدين بتفريط المقصّرين ورثيت لاباء الصبيان من إبطاء المعلمين عن تحذيقهم ولم ترث للمعلمين من إبطاء الصبيان عمّا يراد بهم وبعدهم عن صرف القلوب لما يحفظونه ويدرسونه . والمعلمون اشقى بالصبيان من رعاة الضان ورواض المهارى . ولو نظرت من جهة النظر علمت ان النعمة فيهم عظيمة سابغة والشكر عليها لازم واجب » .

ثم يتبسط الجاحظ في توضيح المعنى الضمني الذي تحمله كلمة « معلم » واهمية تبادل الرأي والمناقشة فيقول : « واجمعوا على انهم لم يجدوا كلمة اقل حرفاً ولا أكثر ريعا ولا اعم نفعا ولا أحث على بيان ولا ادعى على تبيين ولا اهجى لمن ترك التفهم وقصر في الافهام من قول امير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه « قيمة كل امرىء ما يحسن » . وقد احسن من قال : مذاكرة الرجال تلقيح لألبابها . وكرهت الحكماء الرؤساء اصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه واغفال العقل من التمييز حتى قالوا الحفظ عذق الذهن ولان مستعمل الحفظ لا يكون الا مُقلّداً . والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه الى برد اليقين وعز الثقة . والقضية الصحيحة والحكم المحمود انه متى أدام الاستنباط أضرّ ذلك بالحفظ وان كان التحفظ اشرف منزلة منه . ومتى اهمل النظر لم تسرع اليه المعاني ومتى اهمل التحفظ لم يعلق بقلبه وقلّ مكثها في صدره . وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط » . ثم يقول بصدد موقف المعلم من التلاميذ ومنزلته في المجتمع :

« ويستدل ايضا بوصايا الملوك للمؤدبين في ابنائهم وفي تقويم أحداثهم على انهم قلدوهم امورهم وضميرهم بلوغ التمام في تأديبهم . وما قلدوهم ذلك الا بعد أن ارتفع اليهم في الحنو حالهم في الادب وبعد ان كشفهم الامتحان وقاموا على الخلاص . وانت ـ حفظك الله ـ لو لو استقصيت عدد النحويين والعروضيين والفرضيين والحسّاب والخطاطين لوجدت أكثرهم مؤدب كبار ومعلم صغار . فكم تظن انا وجدنا منهم من الرواة والقضاة والحكماء والولاة من المناكير والدهاة ومن الحماة والكفاة ومن القادةوالذادة ومن الرؤساء والسادة ومن كبار الكتاب والشعراء والوزراء والادباء ومن اصحاب الرسايل والخطابة والمذكورين بجميع اصناف البلاغة ومن الفرسان واصحاب الطعان ومن نديم كريم وعالم حكيم ومن مليح ظريف ومن شاب عفيف . ولا تعجل بالقضية حتى تستوفي آخر الكتاب وتبلغ أقصى العذر فانك ان كنت تعمدت تزممت وان كنت جهلت تعلمت . وما اظن من احسن بكالظن الا وقد حالف الحزم » .

والمعلم ـ بنظر الجاحظ ـ هو كل صاحب صنعة يتقنها ويحسنهاويعلمها الاخرين بجد وامانة وحرص ، وهذا يشمل أيضا مُدربي الحيوانات :

« قال المعلم : وجدنا كل صنف من جميع ما بالناس الى تعلمه حاجة معلمين كمعلم الكتاب والحساب والفرايض والقرآن والنحو والعروض والاشعار والاخبار والآثار . ووجدنا الاوائل كانوا يتخذون لابنائهم منيعلمهم الكتاب والحساب ثم لعب الصوالجة والرمي ... والفروسية واللعببالرماح والسيوف والمشاولة والمنازلة والمطاردة ثم النجوم واللحون والطب والهندسة وتعلم النرد والشطرنج وضرب الدفوف وضرب الاوتار والوقع والنفخ في اصناف المزامير ويأمرون بتعليم ابناء الرعية الفلاحة والنجارة والبنيان والصياغة والخياطة ... وأنواع الحياكة . نعم حتى علّموا البلابل وأصناف الطير الالحان وناسا يعلمون القرود والدببة والكلاب والظباء المكيبة والببغاء ...

وغراب البين ، ويعلمون الابل والخيل والبغال والحمير والفيلة أصناف المشي وأجناس الحيل . ويعلمون الشواهين والصقور الصيد .. ويعلمون الدوّاب الطحن .. ووجدنا للاشياء كلها معلمين . وانما قيل للانسان العالم الصغير سليل العالم الكبير لان في الانسان من جميع طبائع الحيوان اشكالا من حيل الذئب وروغان الثعلب ووثوب الاسـد وحقد البعير وهداية القطاة . وهذا كثير . وهذا بابه ولانه يحكي كل صوت بفمه . ويصوّر كل صورة بيده . ثم فضّله الله تعالى بالمنطق والروية وامكان التصرف . وعلى أنّا لا نعلم أن لاحد من جميع أصناف المعلمين لجميع هـذه الاصناف كفضيلة المعلم من النـاس الاحداث هي المنطق المنورّ ككلام الاحتجاج والصفات والمناقلات من المسائل والجوابات في جميع العلامات بين الموزون من القصائد والارجاز من المزوج والاسماع مع الكتاب والحساب وما شاكل ذلك ووافقه واتصـل به وذهب مذهبه » .

وبصدد موقفه من المعلمين على وجه الاجمال ذكر الجاحظ ان المعلمين عنده على ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة الى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا من تعليم أولاد الخاصة الى تعليم اولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف نستطيع أن نزعم ان مثل علي بن حمـزة الكسائي ومحمد بن المستنير الذي يقال له قُطْرُب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى ! ولا يجوز هـذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم . فان ذهبوا الى معلمي كتاتيب القُرى فانلكل قوم حاشية وسَفِلة . فما هم في ذلك كغيرهم . وكيف نقول مثل ذلك على هؤلاء ومنهم الفقهاء والشـعراء والخطباء !؟

والخطباء !؟ مثل الكُمَيت بن زيد وعبدالحميد الكاتب وقيس بن سـعد وعَطاء بن أبي رَبَاح . ومثل عبدالكريم بن أبي أُميّة وحسين المعلم وأبي سعيد المعلم !! ومن المعلمين الضحاك بن مزاحم . وأمّا سعيد وعامر الشَّعْبي

فكانا يعلّمان أولاد عبدالملك بن مروان • وكان معبد يعلم سعيداً بن عبدالملك بن مروان • ومنهم أبو سعيد المؤَدِّب وعبدالصمد بن عبد الاعلى وكان معلم ولد عُتبَة بن أبي سفيان • وكان اسماعيل بن علي ألنزَم بعض بنيه عبدالله بن المقفّع ليعلمه • وكان أبو بكر بن كيسان معلما • ومنهم محمد بن السكن • وما كان بالبصرة رجلان أروى لصنوف العلم ولا أحسَن بياناً من أبي وزير وأبي عدنان المعلمين • وحالهما من اول ما اذكر من أيام الصبا • وقد قال الناس في أبي البيداء وفي أبي عبدالله الكاتب وفي الحجاج وابيه ما قالوا • وقد انشدوا مع الخبر شاهداً من الشعر على أن الحجاج واباه كانا معلمَين بالطائف •

ثم يتحدث الجاحظ عن الاصل الاشتقاقي لكلمة « معلم » فيقول « وقالوا انما اشتق اسم المعلم من العلم ، واسم المؤدّب من الادب • وقد علمنا ان العلم هو الاصل والادب هو الفرع • والادب اما خلق واما رواية • وقد اطلقوا له اسم المؤدّب على العموم • والعلم أصل كل خير وبه ينفصل الكرم من اللؤم • والحلال من الحرام • والفضل من الموازنة بين افضل الخيرين والمقابلة بين انقص الشرين • فلم يعرضوا لاحد من هذه الاصناف التي اتخذ الناس لها المعلمين من جميع أنواع الحق والباطل والسرف والاقتصاد والجد والهزل الا هؤلاء الذين لا يعلّمون الا الكتاب والحساب والشعر والنحو والفرائض والعروض » •

ثم ينتقل الجاحظ الى الحديث عن الادب فيقول :

« وقد ذهب قوم الى أن الادب حرف وطلبه شؤوم وانشدوا قول الشاعر :

ما ازددتُ في أدبي حرفاً أُسَر به
الا تزيدت حرفاً تحته شؤمُ

ان المقــــدّم في خُــرقٍ بصنعته

أنّـــى توجّـــه فيهـــا فهو محرومُ

ولم نرَ شاعراً نال بشعره الرغايب ولا أديبا بأدبه المراتب » .

ثم يثير الجاحظ قضايا تربوية طريفة : « وقــد قالوا الصبي عن الصبي أفهم وبه أشكل وكذلك الغافل والغافل والاحمق والاحمــق والغبي والغبي والمرأة والمرأة . قال الله تبارك وتعالى : ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا . لان الناس عن الناس أفهم واليه أسكن فمما اعان الله تعالى الصبيـــان ان قرّب طبايعهم ومقادير عقولهم من مقادير عقول العالمين . وسمع الحجاج ــ وهو يسير ــ كلام امرأة من دار قوم فيه تخليط وهذيان فقال مجنونة أو ترقّص صبياً . ألا ترى ان ابلغ الناس لسانا وأدقّهم فطنه وأبعدهم رؤيــة لو ناطق طفلا أو ناغى صبيا توخّى حكاية مقادير عقول الصبيان والشـــبه لمخارج كلامهم . وكان لا يجد بدأ من أن يصرف عن كلما فضّله الله به بالمعرفـــة الشـــريفة والالفاظ الكريمة . وكذلك يكون مشـــاكلة بين المتفقين في الصناعات » .

ثم يبدي الجاحظ رأياً صائباً ــ بمقاييسنا التربوية الراهنة ــ بصدد تعليم النحو للصبيان والفرق بين معرفة أصحاب الاختصاص ومعرفة غيرهم :

« وأما النحو فلا تشغل قلبهم منه الا بقدر ما يؤديه الى السلامـــة من فاحش اللحن ومقدار جهل العوام في كتاب ان كتبه وشعر ان انشده وشيء ان وصفه . وما زاد عن ذلك فهو مشغلة عمّا هو أولى به ومذهل عمّا هو أرد عليه منه من رواية المثل الشاهد والخبر الصادق والمعنى البارع . وانما يرغب في بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصاد فيه من لا يحتاج الى تعرف جســيمات الامور والاستنباط المتدبر ولمصالح العباد والبلاد والعلم بالاركان والقطب

الذي تدور عليه الرحى ومن ليس له حظ غيره ولا معاش سواه • وعويص النحو لا يجري في المعاملات » •

ثم ينتقل الى تعليم الصبيان الحساب ويوازن بينه وبين تعليم النحو [وفروع اللغة الاخرى] فيبدي رأياً صائباً من حيث الاساس بمقاييسنا التربوية الحديثة : « وأنا أقول ان البلوغ في معرفة الحساب الذي يدور عليه العمل والتوقي فيه والسبب اليه أرد عليه من البلوغ في صناعة المحررين ودروس الخطاطين • لان في أدنى طبقات الخط مع صحة الهجاء بلاغاً وليس كذلك حال الحساب • ثم خذه بتعريف حجج الكتاب وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ الى المعنى الغامض • واذقه حلاوة الاختصار وراحة الكفاية وحذره التكلف •• فان أكرم ذلك ما كان افهاما للسامع ولا يحوج الى التأويل والتعقب ويكون مقصورا على معناه لا مقصرا عنه ولا فائضا عليه • فاختر من المعاني ما لم يكن مستورا باللفظ ••• والخلاصة : ان لكل معنى شريف أو وضيع هزل أو جد ••• ضرباً من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه الذي لا ينبغي ان يجاوزه ويقصر دونه • ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على سبيل صواب ومن نظر فيها ليستفيد الالفاظ فهو على سبيل الخطأ والخسران ••• ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه أنا أشعر منك • قال صاحبه : لِمَ ذاك ؟ قال لاني أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه » •

لقد مرَّ بنا رأي الجاحظ في تعليم النحو للصبيان والفرق بين معرفة المختص وبين المعرفة العامة لغير المختص • وهذا رأي وجيه ذكره ابن السكّيت أيضاً حين قال « وخُذْ من النحو ما تُقيم به الكلام ودَعِ الغوامض » • ذلك فان « ما تقيم » « به الكلام » ليس بالامر الهين ولا يعني مطلقاً أن يكون المرء سطحياً في النحو وهو لب اللغة العربية • قيل ان رجلاً استأذن على ابراهيم النخعي [او الحسن البصري] فقال « أبا عمران » أو

« أبا سعيد » في الدار ؟ فلم يجبه . فقال « أبي عمران » أو « أبي سعيد » في الدار !؟ . فناداه : قل الثالثة وادخل . والنحو وثيق الصلة بالدين الحنيف . ذكر ياقوت في معجم الادباء ما يلي : « ألا ترى ان القاريء اذا قرأ « ان الله بريء من المشركين ورسولهُ — بالرفع — فقد سلك طريقاً من الصواب واضحاً وركب منهجاً من الفضل لائماً ! فان كسر اللام من « رسوله » كان كفراً بحتا وجهلا قحاً . وقد رُوي أن أبا العلاء كان يقول إتقان العربية يجعل المرء أفضل في الدنيا والاخرة . فقيل له هو افضل في الدنيا لفضل فصاحته وعربيته . أرأيت الاخرة ما باله فَضَلَ فيها : قال انه يقرأ كتاب الله على ما أنزله الله . والذي يلحن يحمله لحنه على أن يُدخل في كتاب الله ما ليس فيه ويُخرج منه ما هو فيه . قال: قلت صدق الامير » .

وعن عمرو بن ابي عمرو الشيباني عن ابيه : « قال تكلّم أبو جعفر المنصور في مجلس فيه اعرابي فَلَحن ، فَصَرَّ الاعرابي أذنيه . فلحن مرة أخرى أعظم من الاولى فقال الاعرابي أُفٍّ لهذا . ماهذا ؟ ثم تكلم فلحن الثالثة . فقال الاعرابي اشهد لقد ولِّيتَ هذا الامر بقضاء وقدر » .

وذُكِرَ أن طاهر بن الحسين مر على الكوفة وكان العباس بن محمد بن موسى واليا على الكوفة . فوجّه العباس كاتبه اليه . فلمّا دخل على طاهر قال له : اخيك ابي موسى يقرأ عليك السلام . قال : وما انت منه ؟ قال كاتبه . قال نعم . علَيَّ بعيسى بن عبدالرحمن .قال فجاء . وكان عيسى كاتب طاهر . فقال : اكتب وانت قائم يصرف العباس بن محمد بن موسى عن الكوفة اذا لم يتخذ كاتباً يُحسن الاداء عنه » .

وبصدد اهمية النحو في سائر العلوم يمكننا ان — نستشهد ايضاً — بالاضافة الى ما ذكرناه — بما قاله حمّاد بن سَلَمة بن دينار شيخ أهل البصرة في الحديث والعربية والفقه الذي أخذ عنه يونس بن حبيب النحوي وكان

سيبويه يستملي عليه ايضا . كان حماد يقول : من لَحَن في حديثي فقد كذب عليَّ . ومن طريف ما يروى في هذه المناسبة ان حماد امر سيبويه ان يكتب الحديث الشريف الذي ستأتي الاشارة اليه « ما من أحد من أصحابي الا لو شئت لاخذت عليه ليس ابا الدرداء » . فقال سيبويه ليس أبو الدرداء . فقال حمّاد : لحنت يا سيبويه . فقال سيبويه لاجَرَم ساطلبنَّ علماً لا تُلَحِّنني فيه .

ويجري هذا المجرى ما رُوِي عن الكسائي أنه قال : أجتمعتُ أنا وابو يوسف القاضي عند هرون الرشيد . فجعل ابو يوسف يذم النحو . فقلت له ما تقول في رجل قال لرجل : انا قاتلُ غلامِك . وقال لاخر : انا قاتلٌ غلامَك . ايهما كنتَ تأخذ به . فقال آخذهما جميعاً . فقال الكسائي اخطأت يا ابا يوسف : الذي يُؤْخَذ بقتل الغلام هو الذي قال : انا قاتلُ غلامِك [بالاضافة] لانه فعل ماض . أمّا الذي قال انا قاتلٌ غلامَك [بالنصب] فلا يُؤخَذ لانه مستقبل : لم يكن بَعْدُ كما قال الله « ولا تقولن لشيء إنّي فاعلٌ ذلك غداً إلاّ ان يشاء الله » ثم خاطب الكسائي ابا يوسف : ما تقول لرجل قال لامرأته أنتِ طالق إنْ دخلتِ الدار ». فقال ابو يوسف ان دخلت الدار طُلّقت . فقال الكسائي : خطأ . اذا فُتحتْ « أَنْ » وجب الامر . واذا كُسِرَتْ فانه لم يقع الطلاق بَعْدُ .

الفصل الثاني

الجوانب النفسية

وردت الجوانب النفسية في التراث العربي الاسـلامي [كـالجوانب التربوية التي تحدثنا عنها في الفصل الاول ومعها احيانا ومنفصلة عنها احيانا اخرى ولدي بعض المعنيين بشؤون التربية ممن ذكرنا اسـماءهم دون بعض آخر بشكل صريح او ضمني] مبعثرة ومتفرقة ايضا في كتب الادب والفلسفة والطب • وهي آراء متضاربة • وبعضها بعيد عن روح العصر الذي نعيش فيه • وهذا امر متوقع ولكنه لا ينقص من قيمتها في ضوء قرينتها التاريخية • وقد اعرضنا عن ذكر الآراء البعيدة عن روح العصر لان ذلك يقع خارج نطاق هذه الدراسة التي جعلنا عنوانها « آراء ومواقف تربوية وسايكولوجية صائبة في التراث العربي الاسلامي » • صائبة من وجهة النظر العلمية المعاصرة • وبما ان الآراء السايكولوجية الصائبة موجودة ــ بنظرنا ــ في رسائل اخوان الصفا [بشكل مشتت هنا وهناك] فسوف نستشهد بها وحدها في هـذا الفصـل ونعلق عليها بين حين وآخـر •

كتب اخوان الصفا [بصدد اهمية علم النفس] في احدى رسائلهم ما يلي « اعلم ــ ايها الاخ البار الرحيم أيدك الله وايانا بروح منه ــ ان احد اغراضنا

من هذه الرسالة ما بينّا في أولها .... وأما الغرض الآخر فهو التنبيه على علم النفس والحث على معرفة جوهرها . » وحول العلاقة بين النفس والجسد [او بالتعبير العلمي الحديث : بين الدماغ وسائر اعضاء الجسم] كتب اخوان الصفا العبارات الطريفة التالية : « ثم ان هذا الجسد لهذه الروح ـ من جهة اخرى ـ بمنزلة دكان الصانع . وان جميع اعضاء الجسد للنفس بمنزلة اداة الصانع في دكانه . وان النفس بكل عضو من اعضاء الجسد تظهر ضروباً من الافعال وفنوناً من الاعمال . كما ان الصانع يعمل ضروباً من الاعمال وفنوناً من الحركات : كالنجار فانه ينحت في الفأس وينشر بالمنشار ويثقب بالمثقب ويبرد بالمبرد وينقر بالمنقار . وهكذا الحداد فانه ينفخ بالمنفاخ ويطرق بالمطرقة . وعلى هذا القياس سائر الصناع . كل واحد منهم يعمل بأدوات مختلفة اعمالاً مختلفة وحركات متباينة . فهكذا حال النفس : تبصر بالعينين وتسمع بالاذنين وتشم بالمنخرين وتذوق باللسان وتتكلم بالشفتين واللسان وتمس باليدين وتعمل الصنائع بالاصابع وتمشي بالرجلين وتبرك على الركبتين .. وتنام على الجنبين وتستند بالظهر وتحمل الاثقال على الكتفين ... وبالجملة ما من عضو في الجسد الا وللنفس فيه ضروب من الافعال وفنون من الاعمال . » لو استبدل اخوان الصفا بكلمة « النفس ـ التعبير الفلسفي الغامض ـ كلمة «الدماغ »ـ عضو الحياة العقلية من وجهة النظر العلمية الحديثة ـ لاستوفت ملاحظاتهم الصائبة المشار اليها شروطها العلمية بالمقاييس الراهنة .

ويستطرد اخوان في وظائف « النفس » ـ او الدماغ بالتعبير العلمي السائد ـ فيقولون في موضع آخر من رسائلهم : « ثم اعلم ان لكل عضو من اعضاء الجسد قوة من قوى النفس مختصة بها . وهي تدبر ذلك العضو وتفعل به افعالا خلاف ما تفعل قوى اخرى في عضو آخر . وان تلك القوة تسمى نفساً لذلك العضو المختصة به . مثال ذلك : القوة الباصرة فانها تسمى نفس العين . والقوة السامعة تسمى نفس الاذن . والقوة الذائقة تسمى نفس

اللسان . والقوة الشامة تسمى نفس الانف . وعلى هذا القياس سائر الاعضاء للقوى التي تدبرها وتفعل بها » .

ولو استبدل اخوان الصفا بمصطلح « نفس العين » و « نفس الاذن » الخ . مصطلح « المركز المخي البصري » و « المركز المخي السمعي » الخ . لكان رأيهم صائبا من وجهة نظر علم الدماغ المعاصر .

ويواصل اخوان الصفا بحثهم الطريف هذا في تحليل « النفس » — بالتعبير الفلسفي الغامض — او بتحليل « الدماغ » بالتعبير العلمي المعاصر — فيقولون : « واعلم يا اخي ان القوة المفكرة مسكنها وسط الدماغ ، وهي من بين هذه القوى كالملك . وسائرها كالجنود والاعوان والخدم والرعية يتصرفون بأمرها ونهيها فيما يفعلون في أعضاء الجسد من الحركات وما يظهرون من الصنائع والاعمال . وان موضعها — بين مواضع سائر القوى — في أشرف عضو من الجسد واحسن مكان منه . كما ان دار الملك في أشرف مدينة من بلدان مملكته وفي أجل موضع من المدينة وفي أشرف بقعة . واعلم يا أخي ان أفعال هذه القوى الخمس أشرف وأكرم من أفعال سائر القوى . وقد بيّنا في رسالة الحاس والمحسوس ان القوة المتخيلة — التي مسكنها مقدم الدماغ — نسبتها الى القوة المفكرة بما تجمع اليها من اخبار المحسوسات كنسبة صاحب الخريطة الى الملك . ونسبة القوة الحافظة — التي مسكنها مؤخر الدماغ — الى القوة المفكرة كنسبة الخازن الحافظ ودائع الملك . ونسبة القوة الناطقة — التي مجراها اللسان — الى القوة المفكرة كنسبة الحاجب والترجمان الى الملك. ونسبة القوة الصانعة التي مجراها اليدان والاصابع الى القوة المفكرة كنسبة الوزير المعين في تدبير مملكته والمساعد في سياسته لرعيته » . تلك عبارات في منتهى الدقة والروعة من ناحية المحتوى اوالفحوى بالمقاييس العلمية الراهنة من حيث الاساس . وروعتها هذه تتجلى بأوضح أشكالها اذا تذكرنا انها كتبت قبل زهاء عشر قرون في الوقت الذي لم يكن

فيه « علم الدماغ » قد بدأ باستثناء ملاحظات عابرة وردت هنا وهناك تتعلق بتشريح الدماغ وفسلجته ابداها بعض الاطباء القدامى دون ان ترافقها أو تنتج عنها أية مضامين سايكولوجية . وعندي لو اســـتبدل اخوان الصفا بمصطلحات « القوة المفكرة » و « القوة المتخيلة » و القوة الناطقة « مصطلح « الوظائف العقلية او المخية العليا » لمـــا اختلف موقفهم عن الموقف العلمي الحديث من حيث الجوهر .

ويسترسل اخوان الصفا في تحليلهم العلمي لقدرات الانسان العقلية او وظائفه المخية العليا فيقولون في مكان آخر من رسائلهم : « اعلم ــ وفقك الله ــ ان للانسان خمس قوى روحانية هي القوة المتخيلة والمفكرة والحافظة والناطقة و... وهي كالمتعاونات في ادراكها رسوم المعلومات . وذلك ان القوة المتخيلة اذا تناولت رسوم المحسوسات كلها وقَبِلَتها في ذاتها كمـا يقبل الشمع نقش الفص فان من شأنها ان تناولها كلها الى القوة المفكرة من ساعتها ، فاذا غابت المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها بقيت تلك الرسوم مصوّرة صورة روحانية في ذاتها كما يبقى نقش الفَص ّ في الشمع المختوم مصوّرا بصور روحانية مجردة عن هيولاتها ... ثم ان من شأن القوة المفكرة ان تنظر الى ذاتها وتراها معاينة وتتروى فيها وتميزها وتبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها ثم تؤديها الى القوة الحافظة لتحفظها الى وقت التذكار . ثم ان من شأن القوة الناطقة ــ التي مجراها اللسان ــ اذا أرادت الإخبـــار عنهـا والانباء عن معانيها والجواب للســائلين عن معلوماتها ألفَت لها ألفاظاً من حروف المعجم وجعلتها كالسِّمات لتلك المعاني التي في ذاتها وعبَّرت عنهـا للقوة السامعة من الحاضرين . ولما كانت الاصوات لا تمكث في الهواء الا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحل احتالت الحكمة الإلهية بأن قيَّدت معاني تلك الالفاظ بصناعة بصناعة الكتابة . ثم ان من شأن القوة الصانعة ان تصوغ لها من الخطوط والاشكال بالاقلام وتودعها وجوه الالواح وبطون الطوامير

ليبقى العلم مفيدا فائدة من الماضين للغابرين واثرا من الاولين للآخرين وخطاباً من الحاضرين للغائبين » .

وبصدد نشوء المدركات العقليـة او المفاهيم المجردة او الافكار ، وهو موضوع استأثر بالجهد الاكبر من الدراسات الميدانية والنظرية التي أجراها عالم النفس السويسري الراحل بياجيه لفترة تجـاوزت نصف قرن ، كتب اخوان الصفا العبارات الدقيقة لتاليـة التي لا تختلف من حيث الجوهر عما كتبه بياجيه نفسه الذي تفصله عنهم فترة زمنية طويلة تجاوزت الف عام : « واعلم يا اخي بأن الحكماء لمّا نظروا الى الموجودات فأول ما رأوا الاشخاص مثل زيد وعمرو وخالد . ثم فكّروا فيمن لم يروه من الناس الماضين والغابرين جميعا فعلموا ان كلهم تشملهم الصورة الانسانية وان اختلفوا في صفاتهم من الطول والقصر والسواد والبياض والسمرة .. وما شاكلها من الصفات التي يمتاز بها بعضهم من بعض فقالوا كلهم انسان وسموا الانسان نوعا لانه جملة الاشخاص المتفقة في الصور المختلفة بالاعراض . ثم رأوا شخصا آخر مثل حمار زيد واتان عمرو وجحش خالد فعلموا ان الصورة الحمارية تشملها كلها فسمّوها أيضا نوعا ، ثم رأوا فرس زيد وحصان عمر ومهر خالد فعلموا ان صورة الفرسية تشملها كلها ، فسمّوها أيضا نوعا .وعلى هذا القياس سائر أشخاص الحيوانات من الانعام والسباع والطير وحيوان الماء ودواب البر كل جماعة منها تشملها صورة واحدة سمّوها نوعا . ثم تفكروا في جمعها فعلموا ان الحياة تشملها كلها فسموها الحيوان .. ثم نظروا الى اشـخاص أخر كالنبات والشجر وأنواعها فعلموا ان النمو والغذاء يشملها كلها فسمّوها النامي .. ثم رأوا أشياء أخر مثل الحجر والماء والنار والهواء والكواكب وعلموا أنها كلها أجسام فسمّوها جنساً .. ثم أنهم وجدوا أشياء شتى تقع على شيء واحد لم يتغير في ذاته بل من أجل اضافته الى اشياء شتى فسموها جنس المضاف . مثال ذلك رجل يسمى أباً وابناً وأخاً وزوجاً وجاراً وصديقا

وشريكا وما شاكلها •• ثم إنهم وجدوا أسماء أخر معانيها غير معاني ما تقدم ذكرها مثل فوق وتحت وههنا وما شاكلها من الاسماء فجمعوها وسمّوها جنس الاين • ثم وجدوا اسماء أخر معانيها غير معاني ما ذكرنا مثل يوم وشهر وسنة وحين ومدة وما شاكلها من الاسماء فجمعوها كلها وسمّوها جنس المتى » •

وحول الاعصاب الحسية وردت في رسائل اخوان الصفا العبارات الطريفة التالية : « ينتشر من مقدّم الدّماغ عصبات لطيفة لينة تتصل الحواس وتتفرّق هناك وتنسج في اجزاء جرم الدماغ كنسيج العنكبوت • فاذا باشرت كيفية المحسوسات من اجزاء الحواس وتغير مزاج الحواس عندها وغيَّرتْها عن كيفياتها وصل ذلك التغيير الى تلك الاعصاب ــ التي في مقدم الدماغ والتي منشأها هناك كلها ــ فتتجمع آثار المحسوسات كلها عند القوة المتخيلة كما تجتمع رسائل أصحاب الاخبار عند صاحب الخريطة فيوصل تلك الرسائل كلها الى حضرة الملك • ثم ان الملك يقرأها ويفهم معانيها ثم يسلّمها الى خازنه ليحفظها • فيحفظها الى وقت الحاجة اليها • فهكذا حكم القوة المتخيلة اذا اجتمعت عند آثار هذه المحسوسات التي أدّت اليها القوة الحساسة دفعتها القوة الحساسة دفعتها الى القوة المفكرة التي مسكنها وسط الدماغ لتنظر فيها وترى معانيها وتعرف حقائقها ومضارها ومنافعها ثم تؤديها الى القوة الحافظة لتحفظها الى وقت التذكار » •

لا شك عندي في ان ملاحظات اخوان الصفا المار ذكرها هي من حيث الاساس ملاحظات صائبة وعميقة بالمقاييس العلمية الراهنة • وهي بنظرنا ادق من الملاحظات التي ابداها الفيلسوف الفرنسي [وعالم الفسلجة والرياضيات أيضا] ديكارت (١٥٩٦ ــ ١٦٥٠) الذي جاء من بعدهم بما لا يقل عن ستة قرون • وعندي ــ اذا كان لي عند كما يقول الجاحظ ــ ان ديكارت لو اطلع على ملاحظات اخوان الصفا لتجنب ارتكاب اخطاء شنيعة في عالم الفسلجة

بقيت مسلماً بها الى القرن التاسع عشر عنـــدما فندها بشكل مختبري عالم الفسلجة الالماني مولر [١٨٥٨ــ١٨٨٠] وعالم الفسلجة الاسكتلندي مارشان هول [١٧٩٠ ــ ١٨٥٩] •

وحول الخيال من حيث طبيعته ونشؤوه [أو القوة المتخيلة حسب تعبيرهم] كتب اخوان الصفا العبـارات الممتعة الآتية [السليمة من حيث الجوهر من الناحية العلمية الحديثة] : « فنريد ان نذكر طرفا ــ في هــذا الفصل ــ من أحوال القوة المتخيلة التي مسكنها الدماغ اذ كانت التالية للقوى الحساسة في تناولها رسوم المحسوسات منها • ونذكر أيضا بعض الاسباب المعينــة على أفعالها والمعوّقة عن ذلك • ونذكر تفاوت درجات الناس في هذه القوة ، اذ كان ذلك أحد أسباب اختلافهم في العلوم والمعارف •• ولكن من أجل انهذه أكثر القوى الحساسة متخيلات وأعجبها أفعالا احتجنا ان نذكر علة ذلكفنقول: لهذه القوة خواص عجيبة وأفعال ظريفة • فمنها : تناولهــا رســوم سائر المحسوسات جميعا وتخيلها بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها• ومنها أيضا انها تتخيل أو تتوهم ما حقيقة له وما لا حقيقة له •• مثال ذلك ان الانسان يمكنه أن يتخيل بهذه القوة جملا على رأس نخلة أو نخلة نابتة على رأس جمل أو طائرا له اربع قوائم أو فرساً له جناحان أو حمارا له رأس انسان وما شاكل ذلك مما يعمله المصورون والنقاشونمن الصور المنسوبة الى الجن والشياطين وعجائب البحر مما له حقيقة ومما لا حقيقة له ••

ومن خاصة هذه القوة انها تعجز عن تخيل شيء لم تؤد اليه حاسة من الحواس » • وحول الفروق الفردية بين الناس في الخيال كتب اخوان الصفا : « اعلم ان النــاس ــ في هذه القوة ــ متفاوتو الدرجات تفاوتا بعيدا جدا والدليل عليك أنك تجد كثيرا من الصبيان يكون اسرع تصورا لما يسمعون وأجود تخيلا لما يصف لهم كثير من المشايخ والبالغين • وذلك ان كثيرا من

العلماء والعقلاء والمرتاضين في العلوم والآداب تعجز نفوسهم عن تصوراشياء كثيرة وقد قامت الحجة والبراهين على صحتها » .

وبصدد التفكير [القوة المفكرة] ووحدة عمل الدماغ أو ترابط الوظائف المخية العليا وآثارها المتبادلة [وهو مبدأ علمي سليم في الوقت الحاضر] كتب اخوان الصفا العبارات الآتية ذات المحتوى السليم من حيث الاساس : « اعلم ان للقوة المفكرة خواص كثيرة وافعالا عجيبة تستغرق فيها أفعال القوة المتخيلة وافعال سائر القوى الحساسة الدراكة . وذلك ان افعال هذه القوة نوعان : فمنها ما يخصها بمجردها ومنها ما تشترك فيه مع قوة أخرى من قوى النفس . فمن ذلك الصنايع فان اكثرها أفعال مشتركة بين هذه القوة المفكرة ــ التي آلتها وسط الدماغ ــ وبين القوة الصناعية التي آلتها اليدان . ومنها الكلام والاقاويل واللغات أجمع فانها أفعال مشتركة بين هذه القوة وبين القوة الناطقة التي آلتها اللسان . ومنها تناول رسوم المحسوسات المتخيلات فانها أفعال مشتركة بين هذه وبين القوة المتخيلة التي آلتها مقدم الدماغ . ومنها تناول رسوم المعلومات المحفوظة فانها المشتركة بين هذه وبين القوة الحافظة التي آلتها مؤخر الدماغ . وأما الافعال التي تخصها بمجردها فهي الفكر والروية والتمييز والتصور والاعتبار والتركيب والتحليل والجمع والقياس والبرهان .. فاما فضائل هذه القوة وقضاياها على ما بيّن ههنا وذلك ان هذه القوة المفكرة من بين سائر القوى الحساسة والمتخيلة ومدركاتها كالقاضي بين الخصماء ودعاويهم » .

وحول تدرج المعرفة عند الطفل وسيره من المحسوس الى المجرد وهو مبدأ سايكولوجي سليم كتب اخوان الصفا : « واعلم ان فهم القراءة والكتابة ومعرفتها متأخرة عن فهم الكلام والاقاويل . كما ان فهم الكلام والاقاويل ومعرفتها انما هي متأخرة عن فهم المحسوسات كما هو بيّن لا يخفى على العقلاء ، وذلك أن الطفل اذا خرج من الرحم فانه في الوقت والساعة تدرك

حواسه محسوساتها فيحس بالقوة اللامسة الخشونة واللين وبالقوة الباصرة النور والضياء وبالقوة الذائقة طعم اللبن وبالقوة الشامـة الروائح وبالقوة السامعة الاصوات • ولكنه لا يعلم معاني الكلام والاصوات الا بعد حين •• ثم شيئا فشيئا على التدريج وعلى هذا المثال فهمه ومعرفتـه بسائر الحواس ومحسوساتها الى ان تتم سن التربية ويُغلق باب الرضـاع ويُفتح الكلام والمنطق • ثم بعد ذلك تجيء أيام الكتابة والقراءة والآداب والصنايـع والرياضيات » •

وبصدد العلاقة بين اللغة والفكر [وهو موضوع استأثر بجهود فئة من ابرز علماء النفس المعاصرين وبخاصة في الاتحاد السوفيتي] كتب اخوان الصفا العبارات الدقيقة التالية : « اعلم ان من شأن القوة الناطقة اذا استعانت بهـا القوة المفكرة في النيابة عنها في الجواب والخطاب ان تؤلّف الفاظا من حروف المعجم بنغمات مختلفة السمات التي هي الكلام • ثم تضمن تلك الالفاظ المعاني التي هي مصوَّرة عند القوة المفكرة • فتدفعها عند ذلك الى القوة المعبِّرة لتخرجها الى الهواء بالاصوات المختلفة في اللغات لتحملها الى مسامع الحاضرين بالقرب • فتكون تلك الالفاظ من الحروف المختلفة الاشـكال والسمات كالاجساد المركبة من الاعضاء المختلفة وتكون تلك المعاني المضمنة في تلك الالفاظ كالارواح لها لان كل لفظة لا معنى لها فهي بمنزلة جسد لا روح فيه• اوكل معنى في فكر النفس ليس له لفظة تَعَبّر عنه فهو بمنزلة روح لاجسد له» •

لو استبدل اخوان الصفا بمصطلح « القوة الناطقة » و « القوة المعبِّرة» مصطلح « جهاز الصوت » لما اختلف رأيهم في قضية العلاقة بين اللغة والفكر عن الرأي العلمي الحديث الذي يقترن باسم عالم النفس السوفيتي فيكوتزكي (١٨٩٦ ـ ١٩٣٤) : كتب فيكوتزكي في كتابه الذي ترجمة عنوانه « الفكر واللغة » العبارات التالية :

« يعبّر معنى الكلمة عن رابطة التلاحم العضوي بين الفكر والرموز الذي تشير اليه تلفظاً وبالكتابة لان المعنى ظاهرة لغوية وفكرية في آن • فالصوت المنطوق به دون معنى هو صوت أجوف مبهم أو أعجم لا يدخل في حيز اللغة • وكذا الحال في الرمز المكتوب • فالمعنى من هذه الزاوية ظاهرة لغوية تعبر عن الصور الذهنية على هيئة تجريد وتعميم تحملها الاصوات والرموز المكتوبة • فهو من هذه الناحية عملية فكرية دون منازع • معنى هذا ان الصوت أو الاشارة المكتوبة ظاهرة فكرية اذا نظرنا الى الكلمة من ناحية كونها اداة التعبير تحدثاً وبالكتابة التي تحمل ذلك المعنى الذي لولاه لما اعتبر ذلك الصوت وتلك الاشارة المكتوبة ضمن حدود اللغة • اما الكلمة من حيث هي رسم مكتوب أو صوت منطوق به فهي ظاهرة لغوية اذا نظرنا اليها من حيث كونها الاداة الاجتماعية التي تحمل الفكر وتجسّده وتوضحه وتنقله بين الناس •

فالكلمة اذن كيان واحد متماسك فكري وأداة في الوقت نفسه تعبّر عن الفكر على هيئة صوت أو رمز مكتوب • وهذا هو جوهر اللغة » •

ونود أن نختتم هذا الجانب من جوانب الموضوع بالعبارات الطريفة والدقيقة التالية المتعلقة باقتصار اللغة ــ بالمعنى الذي مرت الاشارة اليه ــ على الانسان وحده دون سائر الحيوانات • كتب اخوان الصفا :

« اعلم يا اخي ان الكلام هو صوت بحروف متقطعة دالة على معان مفهومة من مخارج مختلفة ••• ثم اعلم ان الكلام الدال على المعاني مخصوص به عالم الانسان وهو النطق التام بأي حرف كتب • والحيوان لا يشرك الانسان فيه من الجهات المنطقية والعبارات اللفظية لكن من جهة الحركة الحيوانية والآلة الجسمانية ، والحاجة فيها الى ذلك ، لانك تجد كثيرا من الحيوانات تريد بأصواتها دفع المضار وجذب المنافع تارة لانفسها وتارة لاولادها » •

الفصل الثالث

نماذج اصيلة من التراث ذات مضامين تربوية مهمة

سوف نعرض ــ في هذا الفصل ــ نماذج مختارة من كتب الادب تتعلق بمواقف ذات مضامين تربوية مهمة • وقد تحامينا تحليلها أو التعليق عليها لوضوحها • وهي مستمدة في الاصل من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب الامالي للقالي وكتاب الامالي لليزيدي وامالي الشريف المرتضى وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وزَهْر الاداب للقيرواني وكتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي ونشوار المحاضرة للتنوخي أيضا •

وقد انقسمت تلك النماذج منطقيا الى الاقسام التالية :

أولا ــ العلاقات الودية التي تتخطى اختلاف الرأي •

ثانيا ــ مواقف تثير الاعجاب •

ثالثا ــ قول الحق في المواقف الحرجة •

رابعا ــ « جدلية » أو ديالكتيك الظواهر الاجتماعية •

خامسا ــ الانهماك في الدراسة بشكل منقطع النظير •

اولا ــ العلاقات الودية التي تتخطى اختلاف الراي :

لا شك في أن اختلاف الرأي ــ في القضايا الفكرية الجوهرية ــ كثيرا ما يؤدي الى النفرة والقطيعة وربما يورث العداوة والبغضاء بين الصديقين الحميمين • ومن النادر جدا ان يحصل خلاف ذلك • ومن هذا النادر الطريف ما رواه الجاحظ في كتاب البيان والتبيان عندما قال : « لم يرَ الناس أعجب من الكُميت والطِّرماح : كان الكميت عدنانياً عصبياً ، وكان الطرماح قحطانياً عصبياً • وكان الكميت شيعياً من الغالية • وكان الطرماح خارجياً من الصُّفرِيَّة • وكان الكميت يتعصَّب لاهل الكوفة • وكان الطرماح يتعصب لاهل الشام • وبينهما ــ مع ذلك ــ من الخاصَّة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قطُّ • ثم لم يجرِ بينهما صَرْم ولا نفرة ولا اعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال اليه • ولم يرَ الناس مثلهما الا ما ذكروا في حال عبدالله الاباضي وهشام بن الحكم الرافضي : فانهما صارا الى المشاركة والى الخلطة والمصاحبة » •

ثانيا ــ مواقف تثير الاعجاب :

ــ ١ ــ

جلس المأمون يوماً وقد حضر الناس • فأمر علي بن صالح بإدخال اسماعيل بن موسى •• فغلط علي بن صالح وادخل اسماعيل بن جعفر وكان المأمون من أشد الناس بغضاً له • فلمّا رآه أطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال هاتِ حوائجك • فقال ضيعتي بالفتنة قهرتُها وغُصِبْتُ عليها • فأمر المأمون بردها عليه • ثم قال : ودين لحقني في جفوة امير المؤمنين اياي • فأمر المأمون بقضاء دينه •

- ٢ -

دخل رجل على المهدي فقال يا أمير المؤمنين ان أمير المؤمنين المنصور شتمني .. لكوني شتمت عدوه بحضرته ... قال المهدي : ومَن عدوه الذي غضب لشتمه ؟ قال ابراهيم بن عبدالله بن الحسن . قال المهدي ان ابراهيم أمس به رحماً وأوجب عليه حقاً . فان كان شتمك ـ كما زعمت ـ فعن رحمه ذبَّ وعن عرضه دافع . وما اساء من انتصر لابن عمه . قال الرجل ولكنه كان عدوا له . قال المهدي : فلم ينتصر للعداوة وانما انتصر للرحم . فسكت الرجل . ثم قال المهدي : لعلك اردت أمراً فلم تجد ذريعة عندك أبلغ من هذه الدعوى » .

- ٣ -

ذكر ان الرشيد أحبَّ ان ينظر الى شُعيب القلاَّل كيف يعمل القلال ، فأدخلوه القصر وأتوه بكل ما يحتاج اليه من آلة العمل . وبينما هو يعمل اذا هو بالرشيد قائم على رأسه . فلما رآه نهض قائماً . فقال له الرشيد : دونك ما دُعيتَ له فانّي لم آتك لتقوم لي . وانما أتيتك لتعمل بين يديَّ . فقال شعيب : وأنا لم آتك ليسوء أدبي وانما أتيتك لازداد بك في كثرة صوابي .

- ٤ -

من طريف ما يروى عن نُصيب الشاعر انه دخل على عبدالملك بن مروان فعاتبه عبدالملك على قلة زيارته له وإتيانه اليه . فقال نصيب : يا امير المؤمنين أنا عبد أسود ولست من معاشري الملوك . فدعاه الى النبيذ ، فقال : يا أمير المؤمنين أنا أسود البشرة قبيح المنظر وانما وصلت الى مجلس امير المؤمنين بعقلي . فان رأى أمير المؤمنين ألا يدخل عليه ما يزيله فعل . فأعفاه ووصله.

وذكر الرواة أيضاً ان رجلا دخل على عبدالملك بن مروان فقال : هل من خلوة ؟ فأقبل عبدالملك على أصحابه وقال : اذا شئتم ! فقاموا • فقال له عبدالملك : اسمع ، لا تمدحني في وجهي فإني أعرف بنفسي منك • ولا تكذبني فليس لكذوب رأي ولا تسعيَّن بأحد اليَّ • فقال الرجل : أأنصرف ؟ فقال اذا شئت • فانصرف •

— ٥ —

وذكر الجاحظ في البيان والتبيين ان رجلا وقف على عامر الشَّعْبي فلم يَدَعْ قبيحاً الا رماه به • فقال له عامر : إنْ كنتَ كاذباً فغفر الله لك • وإنْ كنت صادقاً فغفر الله لي • وهذه الحادثة الطريفة شبيهة بحادثة اخرى ذكرها الجاحظ أيضا مفادها : أن السيد المسيح مَرَّ ببعض الناس فشتموه • ثم مَرَّ بآخرين فشتموه • فكان كلما قالوا له شراً قال لهم خيراً • فقال له رجل من الحواريين : كلما زادوك شراً زدتهم خيراً ! حتى كأنك تُغريهم في نفسك وتحثّهم على شتمك !!! قال : « كل انسان يعطي ما عنده • وليس في اوعيتكم إلا الخير » • وقديماً قيل « وكل اناء بالذي فيه ينضح » •

— ٦ —

وذكر الرواة ان اعرابياً قال لسليمان إني اكلمك بكلام فاحتمله فإن وراءه — ان فهمته — ما تحبه • قال هاته • قال انه قد اكتنفتك رجال اساؤوا الاختيار لانفسهم وابتاعوا دنياك بدينهم • ورضاك بسخط ربهم • وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك • وانت مسؤول عما اجرموا وليسوا مسؤولين عما اجرمت • فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك • ورحم الله من قال : شر الناس من باع آخرته بدنياه • وشر منه من باع آخرته بدنيا غيره •

- ٧ -

وعندما قبض على الجاحظ متخفيا في البصرة بعد مقتل الوزير محمد بن عبدالملك الزيات (كيلا يصبح ـ بتعبيره ـ ثاني اثنين اذ هما في التنور)

وجيء به الى بغداد مقيدا امام القاضي احمد بن ابي دؤاد ـ خصم ابن الزيات ـ قال له القاضي : « والله ما علمتك الا متناسيا للنعمة كفورا للصنيعة معددا للمساوىء ... والايام لا تصلح منك لفساد طبعك ورداءة داخلك وسوء اختيارك . »

فقال الجاحظ : « خفف عليك ـ ايدك الله ـ فوالله لان يكون لك الامر علي خير من يكون لي عليك ، ولان أسيء وتحسن أحسن لك من ان احسن وتسيء . وان تعفو عني ـ في حال قدرتك ـ أجمل من الانتقام مني .»
فقال ابن أبي دؤاد « قبحك الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام ... ما تأويل هذه الاية : وكذلك اخذ ربك اذ اخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد »؟
قال الجاحظ :

تلاوتها تأويلها أعز الله القاضي .

- ٩ -

وذكر الجاحظ في البيان والتبيين عن ابي بكر الهذلي انه قال : كنا عند الحسن البصري اذ اقبل وكيع بن ابي الاسود ... فقال للحسن يا ابا سعيد ما تقول في دم البراغيث تصيب الثوب أيصلى فيه ؟ فقال الحسن : ياعجبا ممن ولغ في دماء المسلمين كأنه كلب ثم يسأل عن دم البراغيث » .

- ١٠ -

وذكر ايضا ان احد الخلفاء خطب في الناس يوما وذكر انه لم يصبهم

طاعون منذ ان تولى الخلافة قبل ثلاث سنوات وطلب منهم ان يشكروا اللـه على ذلك ، فقام له اعرابي من بين الحاضرين

وقال : ان الله ارأف بعباده من أن يجمعك والطاعون علينا .

— ١١ —

عزل الوليد بن عبدالملك عبيدة بن عبدالله عن الاردن وضربه وقـال للموكلين به من اتاه متوجعا واثنى عليه فآتوني به . فأتاه عدي بن الرقاع ــ الشاعر ــ وكان عبيدة محسنا اليه فوقف عليه وانشأ يقول من قصيدة :

وما عزلوك مسبوقا ولكن الى الغايات سـباقا جوادا

فوثب الموكلون به فادخلوا عدي الى الوليد واخبروه بما جرى فتيغظ عليه الوليد وقال : أتمدح رجلا قد فعلنا به ما فعلنا ؟ قال يا أمير المؤمنين انه كان الي محسنا ولي مؤثرا ففي اي وقت كنت اكافئه بعد هذا اليوم ؟

— ١٢ —

كان الافشين مبغضا لابي دلف القاسم بن عيسى العجلي . فحمل نفسه يوما على قتله واستدعاه باستحثاث وازعاج . وكان ابو دلف صديقا لقاضـي القضاة احمد ابن ابي دؤاد . فبعث اليه ادركني فمن امري كذا وكذا . فوثب ابن ابي دؤاد مسرعا واستحضر من حضره من الشهود . فلما وصل باب الافشين قال له الغلمان فنستأذن لك ؟ قـال الان اعجل من ذلك ونزل ودخـل فألفى الافشين جالسا في موضعه وقد اقيم ابو دلف بين يديه في الصحن . فلما رأى الافشين قاضي القضاة دخل بلا اذن بهت . فقال له احمد بن ابي دؤاد : ايها الامير انا رسول امير المؤمنين اليك يأمرك ان لا تحدث في امر القاسم حدثـا الا بأذنه . ثم التفت الى الشهود فقال اشهدوا انني قد بلغت رسالة اميـر المؤمنين والقاسم حي معافى . ثم خرج فأتى باب المعتصم مسرعا واستـأذن

عليه فأذن له • فلما دخل عليه قال يا أمير المؤمنين قد كذبت عليك واحدة ارجو بها الجنة ولك بها الفخر •

قال ما هـي ؟ قال كان من الامر كيت وكيت • فضحك المعتصم وقال احسنت احسن الله اليك •

- ١٣ -

قال الاصمعي بعث الي الرشيد في وقت لم تكن عادته ان يستدعيني في مثله • وجاءني الرسول بوجه منكرفأحضرني احضارا عنيفا مستعجلا • فوجلت وجلا شديدا • وخفت • وجزعت • فدخلت فسلمت فلم يرد علي ولا رفع رأسه الي • فقلت سعي لي عنده بباطل يهلكني قبل كشفه وآيست من الحيـاة •

فرفع رأسه وقال : يا اصمعي الا ترى الدعي بن الدعي ابن اليهودية مروان بن ابي حفصة يعرّض بقوله لمعن بن زائدة : وان هو الاّ عبد من عبيدنا :

أقمنا باليمامة بعـد معـن
مقاما لا نريد بـه زيـالا
وقلنا اين نذهب بعـد معـن
وقد ذهب النوال فلا نـوالا
وكان الناس كلهـم لمعـن
الى ان زار حفرته عيـالا

قال الاصمعي فقلت يا أمير المؤمنين هو أحد عبيدك انت اولى بادبه او العفو عنه • فقال علي بمروان • فدخل عليه •

فقال الرشيد : السياط • فأخذ الخدم يضربونه بها • وهو يصيح يا امير المؤمنين ما ذنبي ؟ يا امير المؤمنين استبقني • الى ان ضرب اكثر من مئـة

سوط • فقال يا امير المؤمنين اعف عني • واذكر قولي فيك وفي آبائك • فقال الرشيد يا غلام كف عنه • فأنشده قصيدته التي يقول فيها •

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم ام تسترون هلالها
ام تدفعون مقالة عـن ربـه جبريل بلغها النبي فقالهـا
شهدت مع الانفال آخر آيـة تراثهم فأردتم ابطالهـا
فدعوا الاسود خوادرا في غيلها لا تـولغـنّ دماءكم اشبالها

فأمر باطلاقه وان يدفع اليه ثلاثون الف درهم •

ـ ١٤ ـ

قيل لعبدالملك بن مروان ـ وهو يحارب مصعبا ـ ان مصعبا قد شرب الخمر • فقال عبدالملك والله لو علم مصعب ان الماء ينقص من مروءته ما رُوِيَ منه •

ـ ١٥ ـ

ومن المواقف التي تثير الاعجاب موقف ذات النطاقين السيدة اسماء بنت ابـي بكر من ولدها عبدالله بن الزبير وهو موقف مشهور ومتداول خلاصته : ان عبدالله هذا الذي شهد حرب الجمل مع ابيه وخالته ام المؤمنين والذي كان لتحريضه اثر كبير في خروجهما الى البصرة بويع له بالخلافة عام ٦٤ او ٦٥ للهجرة بعد وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية وقتل عبدالله وهو في عامه الثانـي او الثالث والسبعين ايام عبدالملك بن مروان وصلب بمكة بعد قتله في اعقاب حصار الحجاج له في مكة زهاء ستة اشهر وسبعة عشر يوما • ولامه موقف فريد في بابه ذو جانبين احدهما قبل قتله والاخر وهو مصلوب •

دخل ابن الزبير على امه ـ قبل مقتله بعشرة ايام ـ يعودها اثناء مرض الم بها وقد طعنت في السن وفقدت بصرها فقال لها : ان في الموت لراحـة •

فقالت « لعلك تمنيته لي !!! » وما احب ان اموت حتى تأتي علي احدى حالتيك : اما قتلت فاحتسبك واما ظفرت بعدوك فقرت عيني بك • » فمضى لسبيله • ثم دخل عليها المسجد صبيحة اليوم الذي قتل فيه بعد ان خذله من معه خذلانا شديدا ومضوا يخرجون الى الحجاج • وكان ممن فارقه وخرج الى الحجاج ابناه خبيب وحمزة • وكان قبل ذلك قد نكب بمقتل شقيقه مصعب امير العراقين الذي دحر جيوش عبدالملك بن مروان مرتين واعياه امره • فسار اليه عبدالملك بنفسه حتى اذا كان بمسكن من ارض العراق تقاعس بمصعب اصحابه وقواده وخذلوه • فقال لابنه الحق بمكة فانج بنفسك واخبر عمك عبدالله بما صنع لي اهل العراق ودعني فاني مقتول •

فأبى وقاتل دونه حتى قتل • وعندما دخل مصعب على زوجه سكينة بنت الحسين وهو محتضن سيفه قالت انت غير راجع وصاحت واحزناه عليك يا مصعب !! فالتفت اليها وقال :ان كل هذا في قلبك !!! قالت وما خفي اكثر • قال : لو كنت اعلم هذا لكان لي ولك شأن • ثم خرج فلم يرجع •

اقول : عندما دخل عبدالله على امه صبيحة اليوم الذي قتل فيه فقال لها « خذلني الناس حتى ولدي واهلي • والقوم يعطونني ما اردت من الدنيا • فما رأيك » ؟ فقالت « انت يا بني اعلم بنفسك : ان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض عليه فقد قُتل عليه اصحابك • ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني امية • وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت • اهلكت نفسك واهلكت من قتل معك • وان قلت قد كنت على حق فلما رهن اصحابي وهنت فليس هذا فعل الاحرار واهل الدين • وكم خلودك في الدنيا ؟ القتل احسن • »

فدنا ابن الزبير منها فقبل رأسها وقال « هذا والله رأيي الذي قمت به داعيا الى يومي هذا • لكنني احببت ان اعلم رأيك • فزديتيني بصيرة مع

بصيرتي • فأنظري فانني مقتول من يومي هـذا فلا يشـتد حزنك • »
فقالت « يكون عزائي فيك حسنا ان فقدتني فلا اخرج من الدنيا حتى اتنظر ما يصير امرك • »

اما الموقف بعد صلبه فهو كما قال يعلي بن حرملة دخلت مكة ــ بعد قتل ابن الزبير بثلاثة ايام ــ فاذا هو مصلوب ــ فجاءت امه اسماء بنت ابي بكر وكانت امرأة عجوز طويلة مكفوفة البصر فقالت للحجاج : اما آن لهذا الراكب ان ينزل !!! وروى سعيد بن عامر الحزاز عن ابي ملكية : قال كنت الاذن لمن بشر اسماء بنزول ابنها عبدالله عن الخشبة • فأمرتني بغسله • ثم قامت فصلت عليه • وقد كانت تقول : اللهم لا تمتني حتى تقر عيني بدفنه • » فلما دفنته لم تمض عليها جمعة حتى ماتت •

ـ ١٦ ـ

ذكر الرواة ان ابا جعفر المنصور ضم رجلا يقال له فضيل بن عمران الكوفي الى جعفر ابنه يكتب له ويقوم بامره • فثقل فضيل على حاشية جعفر فاوغرت صدر المنصور على فضيل فأمر بقتله • واتصل خبر قتله بجعفر • فطلب الذي قتل فضيل • فلما جيء قال له ويلك ما يقول امير المؤمنين في قتل رجل مسلم بغير جرم ؟ فقال الريان هو امير المؤمنين يفعل ما يشاء • فغضب جعفر وقال له :

اكلمك بكلام الخاصة فتكلمني بكلام العامة !!! وامر غلمانه بجره والقائه في دجلة • »

ـ ١٧ ـ

ذكر منارة ــ خادم الخلفاء ــ انه رفع الى هرون الرشيد ان رجلا بدمشق من بقايا بني امية عظيم الجاه واسع الدنيا كثير المال والاملاك مطاعا في البلد • فعظم ذلك على الرشيد • فدعاني فقال لي : دعوتك لامر اهمني

وقد منعني النوم . فانظر كيف تكون ؟ ثم قص علي خبر الاموي وقال اخرج الساعة . وهذه قيود وقد ضَممتُ اليك مئة غلام . فادخل وابدأ بالرجل . فان سمع واطاع فقيده وجئني به . والا فتوكل به انت ومن معك حتى لا يهرب وانفذ الكتاب الى امير دمشق . وهذا محمل تجعله اذا قيدته في شقه . وتجلس انت في الشق الاخر ولا تكل حفظه الى غيرك . واحفظ ما يقوله الرجل حرفا بحرف بجميع الفاظه منذ وقوع طرفك عليه الى ان تأتيني به قال منارة : فودعته وخرجت الى ان دخلت دمشق حتى أتيت باب دار الرجل دخلتُ بغير اذن فرأيت شيخا قد اقبل يمشي في الصحن فعلمت انه الرجل . فجاء حتى جلس وسلم علي سلاما خفيفا وسألني عن امير المؤمنين ثم قال ما اقدمك يا منارة ؟ فقلت امر لك من امير المؤمنين . واخرجت الكتاب فدفعته اليه . ففضه وقرأه . ثم قال هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالمسير اليه . ولست اقيم بعد نظري فيه لحظة واحدة . هات أقيادك يا منارة فدعوت بها ومد ساقيه فقيدته وأمرت غلماني بحمله حتى حمل في المحمل . وكنت في الشق الاخر . فابتدأ يحدثني بانبساط . قلت :

الست تعلم ان امير المؤمنين قد اهمه امرك حتى ارسل اليك من انتزعك من بين اهلك وولدك ومالك واخرجك عن جميع حالك وحيدا فريدا مقيدا . وانت مع هذا فارغ القلب . فقال : انا لله وانا اليه راجعون . اخطأت فراستي فراستي فيك يا منارة . قدرتك رجلا كامل العقل وانك ما حللت من الخلفاء هذا المحل الا بعد أن عرفوك بذلك . فاذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقلهم . فالله المستعان .

اما قولك في امير المؤمنين وازعاجه لي من داري واخراجه اياي الى بابه على هذه الصورة فأنا على ثقة بالله عز وجل الذي بيده ناصية امير المؤمنين . فلا يملك معه لنفسه ولغيره ضراً ولا نفعا الا بأذن الله ومشيئته . ولا ذنب لي عن امير المؤمنين اخافه . قال منارة ثم اعرض عني فما سمعت

لفظة حتى شارفنا الكوفة . فدخلت على الرشيد وسقت اليه الحديث من اوله فقال صدق والله ما هذا الا رجل محسود على النعمة مكذوب عليه . ولقد آذيناه فبادر بنزع قيوده عنه وائتني به . وأقبل عليه الرشيد ثم قال له بلغنا عنك فضل همة وامور اجبنا معها ان نراك ونسمع كلامك ونحسن اليك فاذكر اسم حوائجك . قال يا امير المؤمنين تردني الى بلدي واهلي وولدي . فقال له الرشيد انصرف محفوظا الى بلدك . فلما ولى خارجا قال الرشيد يا منارة احمله من وقتك وسر به راجعا كما اتيت به حتى اذا اوصلته الى المجلس الذي اخذته منه فارجع وخله .

— ١٨ —

طالب المعتضد ابا العباس بسطام بعجز ضمانه واسط وحبسه في دار ابن طاهر ألزَمه سبعين الف دينار يؤديها . فكتب النوشجاني صاحب الخبر في ابي العباس انه كان يُفرِّق في ايام ولايته في كل شهر حنطة ودقيقا على المستورين والفقراء ومع ذلك فانه يماطل باداء ما عليه . فلما بلغ المعتضد الخبر قال قد سرني هذا لان ابن بسطام رجل مشهور بعظم المروءة وكثرة المعروف وقد جملنا بما قد فعل . فعفا عنه ورده الى عمله .

— ١٩ —

ذكر الرواة ان رجلين ـ احدهما من ولد جابر بن عبدالله الانصاري والاخر من ثقيف ـ خرجا من المدينة يريدان عبدالله بن عامر امير العراق لعثمان بن عفان . فاقبلا يسيران حتى اذا كانا بناحية البصرة قال الانصاري للثقفي ننيخ رواحلنا ونصلي ركعتين نحمد الله فيهما على ما قضى في سفرنا . قال الثقفي نعم . ففعلا . ثم التفت الانصاري الى الثقفي فقال له : يا اخا ثقيف ما رأيك ؟ قال الثقفي واي موضع رأي هذا ؟ امضيت سفري وأنضيت بدني وأتعبت راحلتي ولا مؤجل دون ابن عامر . فهل لك رأي غير

هذا ؟ قال نعم . انني لما صليت فكرت فاستحييت من ربـي ان يراني طالب رزق من عند غيره . ثم ولى راجعا الى المدينة .

- ٢٠ -

قال احمد بن عطية سمعت ابا عبيد يقول :

كنا - مع محمد بن الحسن - اذ اقبل الرشيد فقام اليه الناس كلهـم الا محمد بن الحسن فانه لم يقم . وكان الحسن بن زياد ثقيل القلب ممتلىء الحقد على محمد بن الحسن . فقام - ودخل الناس من اصحاب الخليفة - فأمهل الرشيد يسيرا ثم خرج الاذن فقال محمد بن الحسن فجزع اصحابـه له . فأدخل في مهل ثم خرج طيب النفس مسرورا . فقال : قال لي ما لك لم تقم مع الناس ؟

قلت : كرهت ان اخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها . انت اهلتني للعلم فكرهت ان اخرج عنه الى طبقة الخدمة التي هي خارجة عنه . فقال : صدقت يا محمد .

- ٢١ -

من طريف ما يروى عن اسحق الموصلي انه قال كنت بين يديّ المأمون قائما فدخل ابن البواب الحاجب برقعة فيها ابيات فقال للمأمون اتأذن يا امير المؤمنين في انشادها ؟ قال المأمون هات فأنشد :

أجزني فأني قد ضَمِنْتُ الى الوعـد
متـى يُنْجَزُ الوعـد المؤكـد بالعهد

أعيذك من خِلْفِ الملوك وقـد تـرى
تَقَطّعَ أنفاسـي عليـك من الوجـد

رأي الله عبـــدالله خــــير عبـــاده
فَملكَـــه والله أعلـــم بالعبـــد

الا انمـا المأمـــون للنـــاس عصـــمة
مميـــزة بـين الضــــلالة والرشـــد

فقال المأمون : احسنت ، وظنها له ، فقال ابن البواب بل احسن قائلها يا امير المؤمنين ، قال ومن قائلها ؟ قال عبدك الحسين بن الضحاك ،

فقطب المأمون وقال لا حَيّا الله من ذكرت ولا بياه ولا قربه اليس هو القائل ــ في رثاء الامين :

أعَيْنَيَّ جــودا وابكيـا محمـــدا
ولا تَــذْخَرا دمعــا عليــه وأســعد

فلا تَمَّت الأشـــياء بعـد محمـد
ولازال شــملُ الملك فيــه مبــددا

ولا فـرح المأمــون بالعيشــ بعـــده
ولازال في الدنيـــا طريــدا مشـــردا

هذا بذاك ، ولاشيء له عندنا ، فقال ابن البواب :

فأين فضل امير المؤمنين وسعة حلمه وعادته في العفو ؟ فأمر المأمـــون باحضاره ، فلما حضر سلم ، فرد عليه المأمون ردا خفيفا ، ثم قال اخبرنـــي هل عرفت يوم قتل اخي هاشمية قتلت او هتكت ؟

قال لا ، قال فما معنى قولك :

وممــا شــجا قلبــي وكَفْكفَ عبرتــي
محــارم من آل النبي اسْــتُحِلّتِ

ومهتوكـة يا لخلـد عنهـا سـجوفها
كعـاب كقـرن الشمـس حـين تبـدت
اذا خفرتهـا روعـة مـن منـازع
لهـا المـرط عـادت بالخضـوع ورنـت
وسـرب ظبـاء مـن ذؤابـه هاشـم
هتفـن بدعـوى خـير حـي وميـت
أرد يـدا منـي اذا مـا ذكرتـه
علـى كبـد حـرى وقلـب مفتـت
فـلا يـأت ليـل الشـامتين بغبطـة
ولا بلغـت آمالهـا مـن تمنـت

فقال الحسين بن الضحاك يا امير المؤمنين : لوعة غلبتني وروعة فاجأتني ونعمة فقدتها بعد ان غمرتني

واحسان شكرته فانطقني . فقال المأمون قد عفوت عنك وامرت لـك بادرار ارزاقك عليك واعطائك ما فات منها .

ـ ٢٢ ـ

قيل ان رجلا دامت عطلته فزور كتبا عن ابي الحسن علي بن محمد بن الفرات ــ وهو وزير ــ الى ابي زنبور عامل مصـر وخرج اليه ولقيه بها . فانكرها ابو زنبور فانفذ الكتب الى ابن الفرات فوصـلت الكتب الـى ابي الحسن واصحابه بين يديه فعرفهم الصـورة وقال ما الرأي في امـر الرجل ؟ فقال بعضهم : نقطع يده لتزويره على الوزير . وقال بعضهم يضرب ويحبس ... فقال ابن الفرات : ما ابعد طباعكم عن الجميل !!! رجل توسل بنا وتحمل المشقة الى مصر وامل بجاهنا الغنى فخفف عنا بان كتب لنفسه ماقدر

ان به صلاحه ورحل ملتمسا للرزق . ثم ضرب بيده الى الدواة وقلب الكتاب المزور ووقع عليه بخطه :

هذا كتابي ولا اعلم لاي سبب انكرته . فأجزل عطية حامله وتابع سيره .

- ٢٣ -

ويدخل في هذا موقف اشترطه الامـام علـي في الوالي من الرعية [أو المسؤول عن تصريف شؤون الناس وبين الشعب بالتعبير الحديث] كما ورد ذلك في كتاب الامـام علـي بن ابي طالب للاشتر النخعي لما ولاه على مصـر واعمالها حين اضطرب امر اميرها محمد بن ابي بكر :

« ثم اعلم ـ يا مالك ـ اني وجهتك الى بلاد جرت عليها دول قبلـك من عدل وجور ـ وان الناس ينظرون من امورك في مثل ما كنت تنظر فيـه من امور الولاة قبلك . ويقولون فيك ما كنت تقوله فيهم . وانما يستـدل على الصالحين بما يجري الله لهم على السـن عباده . فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح . فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل اليك .. واشعر الرحمة للرعية والمحبـة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سـيفا ضاربا تغتنم اكلهم فأنهم صنفان : اما اخ لك في الدين واما نظير لك في الخلق . يفرط منهم الزلل ... فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضـى ان يعطيك الله من عفوه وصفحه . فأنك فوقهم ووالي الامر عليك فوقـك والله فوق من ولاك ... ولا تندمن على عضو ولا تبجحن بعقوبة ولا تسرعن الى بادرة وجدت عنها مندوحة ... انصف اللـه وانصف النـاس من نفسك ومن خاصة اهلك ومن لك هوى فيه من رعيتك ... وليكن احـب الامور اليك اوسطها في الحق واعمها واجمعها لرضا الرعية فان سخط العامة يجحف برضا الخاصة وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة ... وليكن ابعد رعيتك منك وأشنأهم عندك اطلبهم لمعايب الناس فان في الناس عيوبا الوالي

أحق من سترها . فلا تكشفن ماغاب عنك منها فان عليك تطهير ماظهر لك ... اطلق عن النـــاس عقدة كل حقد واقطع عنك سبب كل وزر وتغاب عن كل ما يصح لك ولا تعجلن الى تصديق ساع . »

- ٢٤ -

زعموا ان أبا العباس المبرد ورد الدينور زائرا لعيسى بن ماهان . فأول ما دخل عليه وقضى سلامه قال له عيسى : « ايها الشيخ ما الشاة المجثمة التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن آكل لحمها ؟ فقال هي الشاة القليلـــة اللبن ... فقال هل من شاهد ؟ قال نعم قول الراجز :

لـم يبـق مـن آل الحـُمَـيْـدِ نسـمه
الا عنيـز مَـجْـبَـة" مجثمـه

فاذا الحاجب يستأذن لابي حنيفة الدينوري . فلما دخل قال عيسى : ايها الشيخ ما الشاة المجثمة التي نُهينا عن آكل لحمها ؟ فقال هي التي جثمت على ركبها وذبحت من خلف قفاها ، فقال كيف تقول أأأ وهذا شيخ العراق ــ يعني ابا العباس المبرد ــ يقول ... هي القليلة اللبن . وانشده البيتين . فقال ابو حنيفة أيمان البيعة تلزم ابا حنيفة ان كان هذا التفسير سمعه هـــذا الشيخ او قرأه وان كان البيتان الا لساعتهما هذه ، فقال المبرد :

صدق الشيخ ابو حنيفة فأني أنفت ان ارد عليك من العراق ــ وذكري ما قد شاع ــ فأول ما تسألني عنه لا أعرفه . فاستحسن منه هذا الاقرار .

- ٢٥ -

وذكر محمد بن عبدالله بن حمدون احد المقربين الى المعتضد الخليفة العباسي : ان المعتضد كان في بعض مُتَـصَّدياته مجتازا بعسكره وانا معــه . فصاح ناطور في قِثّاء فأستدعاه وســأله عن سبب صياحه . فقال أخذ بعض

الجيش شيئا • فقال المعتضد اطلبوهم • فجاءوا بثلاثة انفس • فقال هؤلاء الذين اخذوا القثاء ؟ فقال الناطور : نعم • فقيدهم في الحال وأمر بحبسهم • فلما كان من الغد أنقذهم الى القَراَح ــ اي مكان القثاء ــ وضرب اعناقهم فيه • وسار • فأنكر الناس ذلك وتحدثوا به • ومضت على ذلك مدة طويلة • فجلست احادثه ليلة • فقال لي : يا عبدالله هل يعيب الناس علي شيئا ؟ عرفني حتى ازيله • فقلت • كلا يا امير المؤمنين • فقال أقسمت عليك بحياتي الا صدقتني • قلت : يا امير المؤمنين وانا آمن !!!

قال نعم • قلت : اسراعك الى سفك الدماء فقال : والله ماهرقت دما قط منذ وليت هذا الامر الا بحقه • قال : فأمسكت امساك من ينكر عليه الكلام • فقال بحياتي لما قلت • فقلت يقولون انك قتلت احمد بن الطيب وكان خادمك ولم تكن له جناية ظاهرة • فقال : ويحك انه دعاني الى الالحاد ••• فسكت سكوت من يريد الكلام • فقال في وجهك كلام • فقلت : الناس ينقمون عليك امر الثلاثة الانفس الذين قتلتهم في قَراَح القثاء • فقال والله ما كان اولئك المقتولون هم الذين اخذوا القثاء وانما كانوا مجرمين يستحقون القتل حملوا من موضع كذا وكذا • ووافق ذلك امر اصحاب القثاء فأردت ان أهول على الجيش بان من عاث منهم في عسكري وافسدوا في هذا القدر كانت هذه عقوبتي له ليكفوا عما فوقه • ولو اردت قتل اصحاب القثاء لقتلتهم في الحال والوقت • وانما حبستهم وامرت باخراج المجرمين من غد مغطين الوجوه ليقال انهم اصحاب القثاء • فقلت فكيف تعلم العامة ؟ قال اخراجي القوم الذين اخذوا القثاء احياءا واطلاقي لهم في هذه لساعة • ثم قال : هاتوا القوم • فجاءوا بهم فاستتابهم عن فعل مثل ذلك واطلقهم •

- ٢٦ -

وذكر احمد بن عبيد بن ناصح ـ مؤدب المعتز ـ ان المتوكل لما اراد ان يعقد للمعتز ولاية العهد حَطَطْتُه عن مرتبته قليلا وأخرجت غداءه عن وقته . فلما كان وقت الانصراف قلت للخادم احمله فضربته من غير ذنب . فشكى ذلك الى المتوكل . فأنا في الطريق منصرفا اذ لحقني صاحب رسالة فقال : امير المؤمنين يدعوك . فدخلت على المتوكل وهو جالس على كرسي والغضب يبين في وجهه والفتح بن خاقان بين يديه منكئا على السيف . فقال ما هـذا الذي فعلته يا أبا عبدالله ؟ فقلت أقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال : انما سألتك لتقول . قلت : بلغني ما عزم عليه امير المؤمنين ـ اطال الله بقاءه ـ فدعوت ولي عهده وحططت منزلته ليعرف هذا المقدار فلا يعجل بزوال نعمة احـد . وأخرت غداءه ليعرف هذا المقدار من الجوع فاذا اشتكى اليه الجوع عرف ذلك . وضربته من غير ذنب ليعرف مقدار الظلم فلا يعجل على احد .

- ٢٧ -

وذكر ابو جعفر احمد بن يوسف بن ابراهيم ان احمد بن طولون حبس والده يوسف بن ابراهيم في بعض داره . وكان اعتقال الرجل في داره ينذر بهلاكه . فاجتمع زهاء ثلاثين رجلا ممن يعرفون يوسف ويترددون عليه . وركبوا الى دار احمد بن طولون واستأذنوا عليه . فأذن لهم . فدخلوا اليه ـ وعنده محمد بن عبدالله بن عبدالحكم وجماعة من اعلام الناس . فابتدأوا كلامهم بان قالوا : قد اتفق لنا ـ ايد الله الامير ـ من حضور هذه الجماعة [واشاروا الى ابن عبد الحكم والحاضرين مجلسه] مارجونا ان يكون ذريعة الى ما نسأله ونحن نرغب الى الامير في ان يسألهم عنا ليقف على امرنا ومنازلنا . فسألهم احمد بن طولون عنهم فقالوا : قد عرضت العدالة ـ يعني مهنة القضاء ـ على اكثرهم فامتنع منها . فأمرهم احمد بن طولون

بالجلوس • وسألهم تعريفه ما قصدوا له • فقالوا ليس لنا ان نسأل الامير مخالفة ما يراه في يوسف بن ابراهيم لانه أهدى الى الصواب فيه• ونحن نسأله ان يقدمنا الى ما اعتزم عليه فيه : ان آثر قتله ان يقتلنا • وان آثر غير ذلك ان يبلغه فهو في سعة وحل منه • فقال احمد بن طولون بارك الله عليكم فقد كافأتم احسانه • ثم قال احضروا يوسف بن ابراهيم • فأحضر • فقال خذوا بيد صاحبنهم وانصرفوا • فخرجوا معه وانصرف الى منزله •

— ٢٨ —

وحضر الصاحب بن عباد دار الوزير المهلبي عند وروده الى بغداد • ثم قصد القاضي ابا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه • فتثاقل القاضي في القيام للصاحب • وتحفز حفزا اراد به ضعف حركته وقصور نهضته • فأخذ الصاحب بيده واقامه • وقال نعين القاضي على قضاء حقوق اخوانه • فخجل ابو السائب واعتذر اليه • ويجري هذا المجرى ما ذكره القاضي ابو علي التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة حين قال : « حدثني ابو منصور عبدالعزيز محمد بن عثمان المعروف بابن الشراي صاحب امير المؤمنين المطيع لله • قال : دخلت في حداثتي يوما على ابي السائب القاضي • فتثاقل في القيام لي واظهر ضعفا عنه للسن والعلل المتصلة به • قال : فتطاولت فجذبت يده بيدي حتى اقمته القيام التام وقلت له : أعين قاضي القضاة ــ ايده الله ــ على اكمال البر وتوفية الاخوان حقوقهم • قال وكنت عاتبا عليه في اشياء عاملني بها • وانما جئته للخصومة • فبدأت لاخذ الكلام • فحين رأى الشر في وجهي قال : تتفضل لاستماع كلمتين ؟ ثم تقول ما شئت •

فقلت له قل : فقال روينا عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ في قوله تعالى : « فأصفح الصفح الجميل » • قال عفو بلا تقريع • فأن رأيت أن تفعل ذلك فأفعل • فأستحييت من الاستقصاء عليه وانصرفت » •

وفي سنة ثمان عشرة ومئتين كتب المأمون من الثغر الى اسحق بن ابراهيم المصعبي والي بغداد في امتحان القضاة والفقهاء والمحدثين بالقرآن . فمن أقر أنه مخلوق محدث خلي سبيله . ومن ابى عليه أعلمه بـه ليأمر فيه برأيه . فأحضر اسحق : ابا حسان الزيادي وبشر بن الوليد الكندي وعلي بن ابي مقاتل والفضل بن غانم والذبال بن هيثم وسجادة والقواريري واحمد بن حنبل وقتيبة وسعدوية الواسطي وعلي بن الجعد وسعد بن ابي اسرائيل وابن الهرَ َش وابن علية الاكبر ويحيى بن عبدالرحمن الرباشي وأبا نصر النمار وابا معمر القيطعي ومحمد بن حاتم بن ميسون ومحمد بن نوح المضروب وابن الفرحان وجماعة منهم النضر بن شميل وابو علي عاصم وابو العوام البزاز وابن شجاع وعبدالرحمن بن اسحق . فأدخلوا على اسحق بن ابراهيم المصعبي فقرأ عليهم كتاب المأمون مرتين حتى فهموه . ثم كلم رجلا رجلا منهم فيجيب بما يغالط به أو يصرح . حتى قال لأبي حسان الزيادي ما عندك ؟ وقرآ عليه كتاب المأمون . فقال الزيادي : القرآن كلام الله . والله خالق كل شيء . وامير المؤمنين امامنا وبسببه سمعنا عامة العلم . وقد سمع ما لم نسمع وعلم ما لم نعلم . وقد قلده الله امرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا وتؤدي اليه زكوات اموالنا ونجاهد معه ونرى امامته . فان امرنا أئتمرنا وان نهانا انتهينا . فقال له اسحق ابن ابراهيم المصعبي : القرآن مخلوق ؟ فاعاد ابو حسان الزيادي مقالته . فقال اسحق بن ابراهيم المصبعي : هذه مقالة امير المؤمنين فقال الزيادي قد تكون مقالته ولا يأمر الناس بها وان اخبرتني ان امير المؤمنين امرك ان اقول قلت ما امرني به فانك الثقة فيما ابلغني عنه . قال المصعبي ما امرني ان ابلغك شيئا . قال الزيادي وما عندي الا السمع والطاعة فامرني أئتمر . قال المصعبي ما امرني ان آمركم وانما امرني ان امتحنكم وتركه والتفت الى غيره .

— ٣٠ —

وحدث الصولي عن عبدالله بن محمد الفارسي عن ثمامة بن اشرس قال لما قدم المأمون من خراسان الى بغداد امر بان يسمى له قوم من اهل الادب ليجالسوه ويسامروه • فذكر له جماعة فيهم الحسين بن الضحاك • فقرأ اسماءهم حتى بلغ الى الحسين فقال : أليس هو الذي يقول في الامين :

هلاّ بقيت لسد فاقتنا
أبدا وكان لغيرك التلف

فلقد خلفت خلائفا سلفوا
ولسوف يعوز بعدك الخلف

لا حاجة لي فيه • والله لا يراني ابدا الا في الطريق • ولم يعاتب المأمون الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به •

— ٣١ —

وحدث جعفر بن منصور قال حدثني أبي قال : حج المهدي فنزل زبالة [وهي قرية بطريق مكة من الكوفة] فدخل الحسين بن مطير الاسدي عليه فقال

أضْحت يمينك من جود مصوَّرةً
لا بل يمينك منها صورة الجود

من حسن وجهك تضحي الارض مشرقة
ومن بنانك يجري الماء في العود

فقال المهدي كذبت • قال : ولم ذاك يا امير المؤمنين ؟ قال هل تركت في شعرك موضعا لاحد بعد قولك في معن بن زائدة :

ألِمّا على معن وقولا لقبره
سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا

فيا قبر معن انت اول حفرة
من الارض خطت للمكارم مضجعا

ويا قبر معن كيف واريت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا

بلى قد وسعت الجود والجود ميت
ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا

ولما مضى معن مضى الجود وانقضى
واصبح عرنين المكارم أجدعا

وما كان الا الجود صورة وجهه
فعاش ربيعا ثم وَلّى وودعا

وكنت لدار الجود يا معن عامرا
وقد أصبحت الدار بعدك بلقعا

فتى عيش في معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

تَمنّى أناس شأوه من ضلالهم
فأضحوا على الاذقان صرعى وظُلّعا

أبى ذكر معن ان يميت فعاله
وان كان قد لاقى حماما ومصرعا

فقال الحسين بن مطير : يا امير المؤمنين انما معن حسنه من حسناتك وفعلة من فعلاتك .

- ٣٢ -

ذكر الرواة ان عمر بن بُكَيرْ كان يوما بين يدي المنتصر وهو أمير وفي نفسه شيء على الحسن بن سهيل ولا يأذن له بالدخول عليه . فقال عمر « أن رأى الامير ان يسهل أذنه ويجعل ذلك على يدي وحبوة لي وذريعة في مكافأة الحسن فعل ... فأدخل الحسن .. فلما سلم على المنتصر امره بالجلوس . فجلس . فقال له المنتصر قد صيرت اذنك الى عمر بن بكير ورفعت يد الحاجب عنك فاحضر اذا شئت من غدو أو رواح وارفع حوائجك وتكلم بكل ما في صدرك .

فقال الحسن : ايها الامير والله ما احضر طلبا للدنيا ولا رغبة فيها ولا حرصا عليها . ولكن عبد يشتاق الى سادته وبلقائهم يشتد ظهره وينبسط امله . وما احضر لغير ذلك . »

- ٣٣ -

دخل عمارة بن حمزة يوما على المهدي فأعظمه . فلما قام قال له رجل من القرشيين كان في المجلس : يا أمير المؤمنين : من هذا الذي أعظمته هذا الاعظام كله ؟ فقال هذا عمارة بن حمزة مولاي . فسمع عمارة كلامه . فرجع اليه فقال : يا أمير المؤمنين جعلتني كبعض حيازلك وفراشيك ! ! الا قلت : عمارة بن حمزة بن ميمون مولى عبدالله بن عباس ليعرف الناس مكاني !!!

- ٣٤ -

قال محمد اليزيدي « شهدت المأمون وهو جالس على دكة الشماسية وعنده احمد بن الجنيد الاسكافي وجماعة من الخاصة اذ دخل عليه علي بن الهيثم . فلما قرب منه قال له المأمون : يا عدو الله يا فاسق . يا لص ... والله لافرقن بين لحمك وعظمك ... فقال احمد بن الجنيد : نعم والله يا امير المؤمنين ... انه وانه ... ولم يدع شيئا من المكروه الا قاله فيه . فقال المأمون ــ وقد هدأ غضبه ــ يا أحمد ومتى اجترأت علي هذه الجرأة !!! رأيتني وقد

ـ وقد هدأ غضبه ـ يا أحمد ومتى اجترأت علي هذه الجرأة !!! رأيتني وقد غضبت فأردت ان تزيد في غضبي • أما اني سأؤدبك فأؤدب بك غيرك • يا علي بن الهيثم قد صفحت عنك • »

ـ ٣٥ ـ

ذكر الفضل بن الربيع ان اباه كان يأمره بملازمة عمارة بن حمزة • « فاعتل عمارة وكان المهدي سيء الرأي فيه • فقال له ابي يوما : يا أمير المؤمنين مولاك عمارة عليل وقد افضى الى بيع فرشه وكسوته • فقال : غفلنا عنه • وما كنت اظن انه بلغ الى هذه الحالة • احمل اليه خمسمائة الف درهم يا ربيع • واعلمه ان له عندي بعدها ما يحب • فحملها ابي من ساعته وقال لي اذهب بها الى عمارة وقل له ابي يقرئك السلام وقد ذاكر امير المؤمنين امرك فاعتذر من غفلته عنك وامر لك بهذه الدراهم وقال لك عنده ما تحب • فأتيته وابلغته الرسالة فقال : قد كان طال لزومك لنا • وقد كنا نحب ان نكافئك على ذلك ولم تتمكن قبل هذا الوقت • انصرف بها • فهذه لك • »

ـ ٣٦ ـ

قال ابو جعفر محمد بن جرير الطبري : لما دخلت مصر لم يبق احد من أهل العلم الا لقيني وامتحنني في العلم الذي يتحقق به • فجاءني يوما رجل فسألني عن شيء من العروض ـ ولم اكن نشطت له قبل ذلك ـ فقلت له : علي قول الا اتكلم اليوم بشيء من العروض • فاذا كان في غد فصر الي • وطلبت ـ من صديق لي ـ العروض للخليل بن احمد • فجاء به • فنظرت فيه ليلتي • فأمسيت غير عروضي واصبحت عروضيا • » وابو جعفر الطبري من الفضل والعلم ما لم يجهله أحد • فقد كان عالما بالفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والتاريخ • وله في جميع ذلك تصانيف مشهورة •

ـ ٣٧ ـ

وذكر عن المبارك بن محمد بن عبدالكريم الملقب بمجد الدين المعروف

بابن الاثير صاحب « الكامل في التاريخ » قوله « لقد الزمني الامير نور الدين بالوزارة غير مرة وانا استعفيه حتى غضب منــي . فجعلت ابكي فبلغه ذلك فجاءني فقال لي : أبلغ الامر الى هذا الحد !!! ما علمت ان رجلا ممن خلــق الله يكره ما كرهت . فقلت انا يا مولاي رجل كبير وقد خدمت العلم عمري واشتهر ذلك عني في البلاد بأسرها . واعلم أنني لو اجتهدت في اقامة العدل بغاية جهدي ما قدرت اؤدي حقه . ولو ظلم فرد في صنيعة من اقصى اعمال السلطان لنسب ظلمه الي ورجعت انت وغيرك باللائمة علي . » فاعفاه .

ـ ٣٨ ـ

كتب الواقدي مرة الى المأمون يشكو ضائقة ركبه بسببها دين . وعين مقداره فوقع المأمون على قصته بخطه : « فيك خلتــان : سخـاء وحيــاء . فالســـخاء اطلق يديك بتبذير ما ملكت . والحياء حملك على ان ذكــرت لنا بعض دينك ، وقد امرنا لك بضعف ما سألت . وان كنا قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك على نفسك . وان كنا بلغنا بغيتك فزد في بسطة يدك فــان خزائن الله مفتوحة . » وقد ذكر الخطيب في تاريخه ان « الواقدي قدم بغداد وولي قضاء الجانب الشرقي . وهو ممن طبق الارض ذكره .... وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والســـير والطبقات ... » وكان الرشيد قد ولاه القضاء بشرقي بغداد . ثم ولاه المأمون القضاء وكان يكرم جانبه ويبالغ في رعايته .

ثالثا ـ قول الحق في المواقف الحرجة :

مما لاشك فيه ان هناك رابطة عضوية بين « قول الحق في المواقـــف الحرجة » وبين « مواقف تثير الاعجاب » وان الحد الفاصل بينهما يتعــذر رسمه . ومع ذلك فان « المواقف التي تثير الاعجاب » قد تحصل في كثير من الاحيان في حالات خاصة لا يتعرض صاحبها الى خطر داهم او مباشر يهدد

حياته . وقد راعينا هذه الناحية في عزلهما عن بعضهما . مع العلم « ان قول الحق في المواقف الحرجة » ظاهرة اجتماعية نادرة الحدوث ولا يقوى عليها الا بعض الناس في بعض الاحيان . ولهذا فان هذه الحالة بالغة الاهميـــة من الناحية التربوية . وهذه طائفة من الامثلة على قول الحق في المواقف الحرجة .

ـ ١ ـ

بينما المنصور يطوف ليلا بالبيت سمع قائلا يقول : اللهم اليك اشكــو ظهور البغي والفساد وما يحول بين الحق واهله من الطمع . فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد وارسل الى الرجل يدعوه . وعندما حضر قـــال المنصور ما الذي سمعتك تقوله ؟ فقال يا امير المؤمنين ان امنتني على نفسي انبأتك بالامور من اصولها . قال انت امن على نفسك . فقال ان الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين اصلاح ما ظهر من البغي والفساد لانت . ان الله استرعاك المسلمين واموالهم فأغفلت امورهم واهتممت بجمع اموالهم وجعلت بينك وبينهم حجبا وسجنت نفسك فيها عنهم وامرت ان لا يدخل عليك الا فلان وفلان ولم تأمر بايصال المظلوم والملهوف ولا احد مما له في هذا المال حق . فما زال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم بنفسك وآزرتهم على رعيتك يجبون الاموال ويجمعونها وائتمروا على الا يصل اليك من اخبار الناس شيء الا ما ارادوا ولما انتشر ذلك عنك وعنهم اعظمهم النـــاس وهابوهم وكان اول من حالفهم عمالك بالهدايا والامـوال ليقووا على ظلم رعيتك . ان للنـــاس اعلاما يفزعون اليهم في دينهم ويرضون بقولهم فاجعلهم بطانتك يرشـدونك وشاورهم في أمرك يســددوك . قال المنصور قد بعثت اليهم فهربوا مني . قال الرجل : نعم خافوا ان تحملهم على طريقك ولكن افتح بابك وسهــل حجابك وانظر الظلم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات مما حل وطـاب واقسمه بالحق والعدل على أهله وانا الضامن عنهم ان يأتوك ويسعدوك على صلاح الامة .

- ٢ -

وقال الرشيد يوما للفضيل بن عياض : ما ازهدك ؟!! قال : أنت يا هرون ازهد مني لاني زهدت في دنيا فانية وزهدت انت في آخرة باقية

- ٣ -

قال احمد بن ابي دؤاد ما رأيت رجلا قط نزل به الموت وعاينه فما ادهشه ولا اذهله ولا اشغله عما كان اراده واحب ان يفعله حتى بلغه الا تميم بن جميل الخارجي حين اتي به الى المعتصم • فرأيته بين يديه وقد بسط له النطع والسيف فجعل تميم ينظر اليهما وجعل المعتصم يصعد النظر فيه ويصوبه • فقال له المعتصم يا تميم تكلم ان كان لك حجة وعذر فابده • فتمثل تميم بهذه الابيات :

ارى الموت بين السيف والنطع كامنا
يلاحظني من حيثما أتَلَفَّتُ

وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي
وأي امريء مما قضى الله يفلت

ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة
وسيف المنايا بين جنبيه مصلت

يَعِزُّ على الاوس بن تغلب موقف
يُهَزُّ عليَّ السيف فيه وأسكت

وما جزعي من أن أموت وانني
لا علم ان الموت شيء موقت

- ٤ -

ذكر الحسن بن قحطبة انه استؤذن للقاضي شريك بن عبدالله على المهدي ــ وانا حاضر ــ • فقال المهدي علي بالسيف • فأحضر • قال الحسن

فاستقبلتني رعدة لم املكها . ودخل شريك فسلم . فانتضى المهدي السيف . وقال لا سلم الله عليك يا فاسق . قال شريك : يا امير المؤمنين ان للفاسق علامات يعرف بها : شرب الخمور وسماع المعازف وارتكاب المحظورات . فعلى اي ذلك وجدتني ؟ قال : قتلني الله ان لم اقتلك . قال شريك : ولم ذلك يا امير المؤمنين دمي حرام عليك ؟ قال لاني رأيت في المنام كأني مقبل عليك اكلمك وانت تكلمني من قفاك . فأرسلت الى المعبر فسألته عنها فقال هذا رجل يطأ بساطك وهو يسر خلافك . فقال شريك : يا امير المؤمنين ان رؤياك ليست رؤيا يوسف بن يعقوب عليهما السلام . وان دماء المسلمين لا تسفك بالاحلام . فنكس المهدي اليه رأسه وأشار اليه بيده ان أخرج . فانصرف .

- ٥ -

اتى المهدي برجل قد رمي بالزندقة . فسأله عن ذلك . فقال الرجل : أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسوله وان الاسلام ديني عليه احيا وعليه اموت وعليه أبعث . فقال له المهدي يا عدو الله انما تقول هذا مدافعة عن نفسك . هاتم السياط . فأحضرت وأمر بضربه . فضرب ، وهو يقرره . فلما أوجعه الضرب قال له : يا امير المؤمنين : اتق الله . فقد حكمت علي خلاف حكم الله تعالى . وخلاف حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم يقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله . فاذا قالوها عصموا دماءهم واموالهم الا بحقها . وحسابهم على الله . وانت قد جلست تطالبني وتضربني حتى اكفر فتقتلني . فخجل المهدي وعلم انه اخطأ فأمر بأطلاقه .

- ٦ -

قال ابو حازم القاضي كان في حجري ايتام ذكور واناث خلفهم بعض العمال . فرددت اماناتهم الى بعض الشهود فصار الي الامين يوما وعرفني ان

عامل المستغلات ببغداد ـ الذي يتولى مستغلات السلطان ـ قد ادخل يده في املاك الايتام وذكر ان الوزير عبيدالله بن سليمان امره بذلك عن امير المؤمنين المعتضد . قال ابو حازم فصرت الى المعتضد في يوم موكب . فلما انقضى الموكب وفدت منه وشرحت له الصورة . فقال لي ابو الايتام عامل خانني في مالي واقتطعه ولي عليه مال جليل من نواحي كان يتولاها من ضيعتي خاصة . ومالي عليه بضعف هذه الاملاك التي خلفها . قال ابو حازم فقلت ما تدعيه عليه يحتاج الى بينة يا امير المؤمنين وقد صح عندي ان هذه الاملاك املاكه يوم مات ولا طريق الى انتزاعها من يد وارثيه الا ببينة بالمال . هذا حكم الله في البالغين فكيف في الاطفال ؟ فسكت المعتضد ساعة مطرقا . ثم دعا بدواة ووقع بخطه الى عبيدالله بن سليمان بالافراج عن الضياع .

ـ ٧ ـ

حبس هشام بن عبدالملك الفرزدق في سجن خالد بن عبدالله القسري . فوفد جرير الى خالد ليشفع فيه . فقال له خالد : الا يسرك ان الله اخزى الفرزدق !! فقال ايها الامير والله ما احب ان يخزيه الله الا بشعري . وانما قدمت لاشفع فيه . فدعا خالد الفرزدق وقال اني مطلقك بشفاعة جرير فقال الفرزدق اسير قسري وطليق كلبي فبأي وجه افاخر العرب بعدها !! ردني الى السجن .

ـ ٨ ـ

ذكر عن الربيع ـ مولى المنصور ـ انه قال : ما رأيت رجلا اربط جأشا او اثبت جنانا من رجل سعي به الى المنصور ان لديه ودائع واموالا لبني امية .

فأمرني بأحضاره . فأحضرته اليه . فقال له المنصور : رفع الينا نبأ الودائع والاموال التي عندك لبني امية . فأخرج لنا منها واحضرها ولا تكتم منها

شيئا • فقال الرجل يا امير المؤمنين : أأنت وارث بني امية ؟ قال لا • قــال : فوصي لهم في أموالهم وودائعهم ؟ قال لا • قال فما مسألتك عما في يدي من ذلك ؟ قال الربيع : فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال : بني امية ظلموا المسلمين فيها وانا وكيل المسلمين في حقوقهم واريد ان آخذ ما ظلموا المسلمين فيه فأجعله في بيت اموالهم • فقال الرجل : يا امير المؤمنين تحتاج الى اقامــة بينة عادلة أن ما في يدي لبني امية هو مما خانوه او ظلموه فان بني امية كانت لهم اموال غير اموال المسلمين • فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأســه وقال : يا ربيع ما ارى الشيخ الا قد صدق • وما يجب عليه شيء • وما يسعنا الا ان نعفو عما قيل عنه • ثم قال للرجل هل لك حاجة ؟ قال نعم : حاجتي ــ يا أمير المؤمنين ــ ان تجمع بيني وبين من سعى في اليك • فو الله الذي لا اله الا هو مافي يدي لبني امية مال ولا وديعة • ولكني لما مثلت بين يديك وسألتني عنه قابلت بين هذا القول ــ الذي ذكرته الان ــ وبين ذلك القول الذي ذكرتــه اولا فرأيت ذلك اقرب الى الخلاص والنجاة • فقال المنصور للربيع ان يجمع بين الرجل وبين من سعى به • فجمع بينهما • فلما رآه قال هذا غلامي اختلس ثلاثة الاف دينار من مالي وأبق مني وخاف من طلبي له فسعى بي عند اميــر المؤمنين • فشدد المنصور على الغلام وخوفه فاعترف بذنبه •

ـ ٩ ـ

ذكر الرواة ان المنصور بعث الى شيخ من بطانة هشــام بن عبدالملك الخليفة الاموي • فلما حضر سأله المنصور عن سياسة هشام وعلاقاته بالناس • فأقبل الشيخ يقول : فعل هشام رحمه الله كذا وكذا • وقال يوم كذا رحمــه الله •• فامتعض المنصور من ذلك ونهره وقال له : قم لعنك الله • أتطأ بساطي وتترحم على عدوي !!! فقال الشيخ يا امير المؤمنين ان نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها الا غاسلي • فتراجع المنصور وتلاشت حدته وقال ارجع الــى حديثك فأني اشهد انك غرس شريف وابن حرة •

رابعا ــ « جدلية » او ديالكتيك الظواهر الاجتماعية :

نقصد بجدلية الظواهر الاجتماعية ــ او دياليتيكيتها ــ انها تحمل الشيء ونقيضه وان ذلك يتوقف على الجانب الذي تركز اهتمامنا فيه منها • وقديما قال المتنبي

بذا قضت الايام ما بين اهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد

وهذه نماذج منها

ــ ١ ــ

ذكر الرواة ان عبدالله بن عامر امير البصرة لعثمان بن العفان مر على نهر ام عبدالله الذي يشق البصرة ومعه غيلان بن خرشة الضبي احد وجوه القوم • فقال عبدالله : ما اصلح هذا النهر لاهل هذا المصر !!! قال غيلان : أجل ايها الامير • يعلم القوم صبيانهم السباحة فيه • ويكون لسقياهم وسيل مياههم • وتأتيهم فيه ميرتهم • ثم مر غيلان يساير زيادا ــ امير البصرة بعد عبدالله بن عامر وكان يجفوه ــ فقال زياد ما أضر هذا النهر بأهل هذا المصر !!! قال غيلان : أجل ايها الامير • تنز منه دورهم ويغرق فيه صبيانهم ويكثر من اجله يعوضهم •

تلك ظاهرة اجتماعية مألوفة كثيرة الوقوع يجتمع فيها الشيء ونقيضه ويستوي فيها المدح والقدح • وهي ــ بنظرنا ــ ظاهرة اجتماعية طبيعية وموضوعية لا تنطوي دائما وحتما او بالضرورة على التذبذب والمواربة كما قد يبدو في الظاهر لاول وهلة • ونهر ام عبدالله المار ذكره يحمل الصفتين المتناقضين • وغيلان لم يناقض نفسه او يداهن ابن زياد • وقد أبدى الجاحظ ملاحظات طريفة وعميقة في هذا الشأن عندما قال « ان العربي يعاف الشيء ويهجو غيره به • فاذا ابتلى به فخر به • ولكن لا يفخر لنفسه من جهة ما هجا غيره به • فافهم هذا • فأن الناس يغلطون على العرب ويزعمون انهم يمدحون

الشيء الذي يهجونه . وهذا باطل . ليس شيء الا وله وجهان . فاذا مدحوا ذكروا احسن الوجهين .

— ٢ —

ان ملاحظات الجاحظ المار ذكرها تذكرنا بحادثة طريفة نادرة ذكرها صاحب زهر الاداب « وفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم . فقال الزبرقان : يا رسول الله انا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب منهم . آخذ بحقهم وامنعهم من الظلم . وهذا — يعني عمرا — يعلم . فقال عمرو : اجل يا رسول الله : انه مانع لحوزته مطاع في عشيرته شديد العارضة عليهم . فقال الزبرقان : اما والله قد كتم اكثر مما قال . وانه حسدني شرفي . فقال عمرو « اما لئن قال ما قال فوالله ما علمته الا ضيق العطن زمر المروءة احمق الادب لئيم الحال حديث الغنى » . فرأى الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله فقال : يارسول الله « رضيت فقلت احسن ما علمت . وغضب فقلت اقبح ما علمت وما كذبت في الاولى ولقد صدقت في الثانية » .

— ٣ —

ذكر الحريري في المقامة الدينارية ان الحارث بن همام قال « نظمني واخوانا ناد لم يخب فيه مناد ولا كبا قَدْحُ زناد ولا ذكت نار عباد . فبينما نحس تتجاذب اطراف الاناشيد وتتواردطُرَفُ الاسانيد اذ وقف بنا شخص عليه سَمَلٌ وفي مشيه قَزَل . فقال يا اخايير الذخائر وبشائر العشائر عموا صباحا وانعموا اصطباحا . وانظروا الى من كان ذا نَدِي وندى وجدة وجدا ... فما زال به قطوب الخطوب وحروب الكروب ... حتى صفرت الراحة وفرغت الساحة .. فهل من حر آس او سمح مؤاس .. قال الحارث بن همام ... فأبرزت دينارا وقلت له اختبارا ان مدحته نظما فهو لك حتما . فانبرى ينشد في الحال :

أكْــــرِمْ بــه أصـــفر راقــت صُفْرَتُـــهْ
جـــوَّاب آفـــاق ترامــت ســـفرتـه

مأثـــورة سمعتـــــه وشهرتـــــه
قــد أودعــت ســر الغنــى أسرتــــه

وقــارنــت نُجْـــحَ المســـاعي خطرتـــه
وحُبِّبَـــتْ الـــى الانـــام غرتـــه

وحبـــذا مغناتـــــه ونصـــــرته
كــم آمــــر بـــه اســـتتبت امرتـــه

ومشـــرف لـــولاه دامـــت حسرتـــه
وجيشـــ هـــم هزمتــــه كرتـــه

لـــولا التقـــى لقلـــت جلـــت قدرتـــه

ثم بسط يده بعدما أنشده قال أنجز أنجز حر ما وعد وسح حال اذ رعد . فنبذت الدينار اليه وقلت خذه غير مأسوف عليه ... فجردت دينارا آخر وقلت له : هل لك في ان تذمه ثم تضمه . فأنشد مرتجلا وشدا عجلا :

تبـــا لـــــه مــــن خـــادع ممـــاذق
أصفـــر ذي وجهيــــن كالمنافــــق

يبـــدو بوصفيـــن لعيـــن الرامـــق
زينـــة معشـــوق ولـــون عاشـــق

وحبـــــه عنـــــد ذوي الحقائـــــق
يدعـــو الـــى ارتكـــاب ســـخط الخالـــق

لـــولاه لـــم تقطـــع يميـــن ســـارق
ولا بـــدت مظلمــــة مـــن فاســـق

ولا اشمـــــأز باخـــــل مـــن طـــــارق
ولا شـــــكا المطـــون مطــــل العائـــــق

- ٤ -

ذكر الرواة ان خالد بن صفوان ـ مع فضله وجلالته ـ كان احد بخلاء العرب الاربعة . وروي انه اكل يوما خبزا وجبنا فرآه اعرابي فسلم عليـه . فقال خالد : « هلم الى الخبز والجبن فأنه حمض العرب . وهو يسبغ اللقمة ويفتق الشهوة وتطيب عليه الشربة » . فانحط الاعرابي . فلم يبق خالد شيئا منهما ، فقال ياجارية زيدينا خبزا وجبنا . فقالت ما بقي عندنا منه شـيء . فقال خالد : « الحمدلله الذي صرف عنا معرته وكفانا مئونته . والله انـــه ما علمته ليقدح في السن ويخشن الحلق ويربو في المعدة ويعسر في المخرج . »

- ٥ -

وفي ابيات المتنبي التي يصف بها كافورا الاختيدي اوصافا جسمية ثابتة كلون البشرة مثلا اتخذها المتنبي تارة للمدح واخرى للهجاء وتثبت هنـــا بعض ابيات المدح ونتحامى ذكر ابيات الهجاء لتنافرها مع ما نحن بصدده وهو المضامين التربوية الصائبة : ـ وهي موجودة في الديوان بالطبع ـ :

تفضح الشمس كلما ذَرّتْ الشمس بشمس منيرة سوداء
انما الجلد ملبس وابيضاض النفس خير من ابيضاض القباء
من لبيض الملوك ان تبدل اللون بلون الاستاذ والسحناء

خامسا ـ الانصراف التام للعلم او الانهماك المنقطع النظير فيه :

- ١ -

ذكر الرواة ان ابن سحنون كان منهكا في القراءة والكتابة في احـد الايام الى ان حان موعد العشاء . فجاءته جاريته ام مدام بالعشاء . فقال لها : يا ام مدام انا مشغول عن العشاء بما انا فيه . فوقفت صامتة على رأسه . فلما طال انتظارها اخذت تلقمه الى ان اتت على الطعام كله . وانصرفت واستمر هو

على حاله الى ان اذن المؤذن لصلاة الصبح • فطوى اوراقه وقال يا ام مــدام هاتي ما عندك من العشاء • فقالت اطعمتك اياه يا سيدي فقال والله ما شعرت بذلك •

- ٢ -

وابو الفتح عثمان بن جني الذي صحب ابا علي الفارسي اربعين سنــة ينهل من علمه كان ضعيفا في علم الصرف • وقد ذكر الرواة ان ابا علي الفارسي اجتاز الموصل فمر بالجامع وابو الفتح في حلقة يقريء النحو وهو شـــاب • فسأله ابو علي عن مسألة في التصريف فقصر فيها • فقال له ابو علي « زببت (اي صرت زبيبا) وانت حصرم • فسأل عنه فقيل له هذا ابو علي الفارسي • فلزمه من يومه ينهل من علمه حتى اصبح وما أحد أعلم منه به ولا أقوم بأصوله وفروعه • ولا احسن أحد أحسانه في تصنيفه • فلما مات ابــو علي تصـــدر ابو الفتح في مجلسه ببغداد فأخذ عنه الثمانيني وعبدالسلام البصري وابــو الحسن الشمسي • ولم يكن في شيء من علومه — على غزارتها — آكمل منه في التصريف • ولم يتكلم احد في التصريف ادق كلاما •

- ٣ -

قال الاصمعي كنت بالبصرة اطلب العلم وانا مقل • وكان على باب زقاقنا بقال اذا خرجت باكرا يقول لي : الى اين ؟ فاقول الى فلان المحدث • واذا عدت في المساء يقول من اين ؟ فاقول من عند فلان الاخباري او اللغوي • فيقــول : يا هذا اقبل وصيتي : انت شاب فلا تضيع نفسك واطلب معاشا يعود عليـــك نفعه واعطني جميع ما عندك من الكتب حتى اطرحها في الدن ••• والله لو طلبت مني بجميع كتبك حبة بقل ما اعطيتك •

قال الاصمعي : فضيق صدري بمداومته هذا الكلام • حتى كنت اخــرج من بيتي ليلا وادخله ليلا • وحالي — في خلال ذلك — تزداد ضيقا حتى أفضيت

الى بيع اساسات داري وبقيت لا اهتدي الى نفقة يومي • وطال شعري واخلق ثوبي واتسخ بدني •

ومن الطريف ان نشير هنا الى ان الاصمعي سئل يوما : كيف حفظت ونسي اصحابك ؟ قال درست وتركوا •

قال ابو عثمان المازني : سمعت ابا عبيدة يقول : « ادخلت على الرشيد • فقال يا معمر : بلغني ان عندك كتابا حسنا في صفة الخيل احب ان اسمعه منك • فقال الاصمعي — وكان حاضرا — : وما تصنع يا امير المؤمنين بالكتاب ؟ يحضر فرس ونضع ايدينا على كل عضو ونسميه ونذكر مافيه • فقال الرشيد : ياغلام احضر فرسي • فقام الاصمعي فوضع يده على عضو عضو وجعل يقول : هكذا احضر فرسي • فقام الاصمعي فوضع يده على عضو عضو وجعل يقول : هذا كذا وقال الشاعر فيه كذا • حتى انقضى قوله • فقال الرشيد ما تقول يا معمر فيما قال ؟ قال معمر : اصاب في بعض واخطأ في بعض • والذي اصاب فيه شيء نعلمه • والذي اخطأ فيه لا ادري من اين اتى !! »

— ٤ —

وسيبويه — الذي بدأ بدراسة الحديث والفقه — لم يكن ملما بالنحو كل الالمام • وعندماقريء الحديث النبوي الشريف « ليس من أصحابي الا من لو شئت لاخذ عليه ليس ابا الدرداء » اعترض سيبويه وقال « حقه ان يكون : ليس ابو الدرداء • » فقيل له لحنت يا سيبويه • ليس هذا حيث ذهبت • وانما « ليس » هنا استثناء • فقال : لا جرم سأطلب علما لا تلحونني فيه • فاخذ النحو والادب عن الخليل بن احمد ويونس بن حبيب وابي الخطاب الاخفش وعيسى بن عمر •

حدث ابو عبيدة قال : لما مات سيبويه قيل ليونس بن حبيب ان سيبويه قد الف كتابا في الف ورقة من علم الخليل • قال يونس : « ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل !!! جيئوني بكتابه » • فلما نظر فيه رأى كل ما حكى •

فقال « يجب ان يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل في جميع ما حكاه كما صدق فيما حكاه عني • » وذكر صاعد بن احمد الحياني من اهل الاندلس في كتابه قال : « لا اعرف كتابا ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب : أحدها المجسطي لبطليموس في علم هيئة الافلاك • والثاني كتاب ارسطاليس في علم المنطق • والثالث كتاب سيبويه البصري النحوي • فأن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من اصول فنه شيء الا ما لا خطر له • »

وكان المبرد اذا اراد انسان قراءة كتاب سيبويه يقول له « اركبت البحر !!! » تعظيما واستصعابا • وحدث ابن النطاح قال « كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه • فقال الخليل : مرحبا بزائر لا يمل • » وكان ابن النطاح كثير المجالسة للخليل وذكر انه ما سمع الخليل يقولها لغير سيبويه وحدث ابو الطيب اللغوي عن ابي عمر الزاهد قال « مات الفراء وتحت رأسه كتاب سيبويه • » وحدث أبو حاتم السجستاني قال « دخلت على الاصمعي في مرضه الذي مات فيه ••• فقلت له : في نفسي شيء أريد ان اسألك عنه • قال سل • فقلت : حدثني بما جرى بينك وبين سيبويه من المناظرة • فقال : والله لولا اني لا ارجو الحياة من مرضي هذا ما حدثتك : انه عرض علي شيء من الابيات التي وضعها سيبويه ففسرتها على خلاف ما فسره • فبلغ ذلك سيبويه• فبلغني انه قال : لا ناظرته الا في المسجد الجامع • فصليت يوما في الجامع ثم خرجت • فتلقاني في المسجد فقال لي : اجلس يا ابا سعيد • ما الذي انكرت من بيت كذا وبيت كذا ؟ ولِمَ فسرت على خلاف ما يجب ؟ فقلت له : ما فسرت الا على ما يجب • والذي فسرته انت ووضعته خطأ • تسألني فأجيب • ورفعت صوتي فسمع العامة صياحي ونظروا الى لكنته • فقالوا : لو غلب الاصمعي سيبويه • فسرني ذلك • فقال لي سيبويه : اذا علمت يا اصمعي ما نزل بك

مني لم التفت الى قول هؤلاء • ونفض يده في وجهي ومضى • فوالله لقد نزل بي شيء وددت أني لم اتكلم في شيء من العلم • »

— ٥ —

والكسائي — الذي اصبح امام الكوفيين في اللغة والنحو وأحد القراء السبعة المشهورين ومؤدب اولاد الرشيد واثيرا عند الخليفة حتى اخرجه من طبقة المؤدبين الى طبقة الجلساء والمؤنسين — انما تعلم النحو على الكبر • وسببه — على يقول الرواة — انه جاء الى قوم من الهباريين وقد اعيا فقال لهم : قد عييت • فقالوا له : « اتجالسنا وانت تلحن !! فقال كيف لحنت ؟ قالوا : ان كنت اردت من انقطاع الحيلة والتحير في الامرفقل عييت [مخففا] • وان كنت اردت من التعب فقل أعييت • فأنف الكسائي منهذه الكلمة (تلحن) ثم قام من توه فسأل عمن يعلم النحو ؟ فأرشد الى معاذ الهراء فلزمه حتى أنفد ما عنده • ثم خرج الى البصرة فلقي الخليل وجلس في حلقته • فقال له رجل من الاعراب كيف تركت أسد الكوفة وتميمها — وعندها الفصاحة — وجئت الى البصرة !!! فقال للخليل : «من أين أخذت علمك هذا ؟ » قال «من بوادي الحجاز ونجد و تهامة • » فخرج ورجعوقد أنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ •

وحدث هرون بن علي بن المنجم في اماليه عن ابي ندبة قال سمعت الفراء يقول : مدحني رجل من النحويين فقال لي : ما اختلافك الى الكسائي وانت مثله في النحو ؟ فأعجبتني نفسي فأتيته فناظرته مناظرة الاكفاء فكأني كنت طائرا يغرف بمنقاره من البحر •

— ٦ —

اما الخليل الذي استخرج العروض وضبط اللغة فقد اشتهر بالانصراف التام والمطلق لعمله الفكري • وقد عاش على الكفاف لتحقيق هذا الغرض

العلمي النبيل . وقد اشار الى ذلك تلميذه النضر بن شميل بقوله : أكلت الدنيا بعلم الخليل وهو في خص لا يشعر به . ومن طريف ما يروى عن الخليل ــ في هذه المناسبة ــ ان سليمان بن علي والي الاحواز وجه الى الخليل لتأديب ولده . فأخرج الخليل ــ لرسول سليمان ــ خبزا يا بسا وقال : ما دمت اجده فلا حاجة بي الى سليمان . وقد وصف السيرا في الخليل بانه « الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله . » وذكر الرواة ان ابنه دخل يوما عليه وهو يُقَطّع بيتا من الشعر فارتاب في أمره وخيل اليه انه أصيب بمس من الجنون . فخرج يصيح بأعلى صوته : لقد جن ابي . فدخل عليه الناس وهو يقطع البيت واخبروه بما قال ابنه . فأنشأ يقول مخاطبا ابنه :

لو كنت تعلم ما اقول عذرتني
او كنت أعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني
وعلمت انك جاهل فعذرتكا

وقضية انهماك الخليل المنقطع النظير في عمله الذهني معروفة ادت الى وفاته على يقول الرواة فقد كان منهمكا في قضية علمية شغلت ذهنه وهو في طريقه الى المسجد . وعند دخوله اياه أصطدم بأحدى السواري فأنقلب على ظهره وفارق الحياة .

ــ ٧ ــ

هناك احاديث كثيرة اخرى مماثلة تتعلق بانهماك شخصيات عربية واسلامية فذةفي العمل الفكري ابرزها مايتعلق بقطرب ــ محمد بن المستنير ــ الذي لازم استاذه سيبويه ملازمة الظل لذي الظل . وقد سمي قُطْرُباً لانه كان يبكر الى سيبويه للاخذ عنه . فاذا خرج سيبويه سحرا رآه على الباب . فقال يوما ما أنت الا قطرب ليل [دويبة صغيرة] .

وقطرب هذا هو احد ائمة النحو واللغة ومن جماعة النظام في الاعتزال ومؤدب ولد ابي دلف العجلي ـ الذي مرت الاشارة اليه ـ وصاحب المصنفات الكثيرة .

- ٨ -

ومن تلك الشخصيات ايضا اسحق بن ابراهيم الموصلي الذي جمع ـ الى جانب حذقه بصناعته : الغناء ـ حسن التصرف في العلوم وجودة الصنعة للشعر . وقد ذكر ياقوت ـ في معجم الادباء ـ : انه لو اراد استيعاب موضع الموصلي من العلم ومكانه من الادب والشعر لطال معجم الادباء وخرج من غرضه في الاختصار .

اما الغناء ـ الذي انفرد به الموصلي ـ فكان اصغر علومه وادنى ما يوصف به وان كان الغالب عليه لانه كان له في سائر علومه نظراء ولم يكن له نظير في الغناء . ومن طريف ما يروي ـ في هذا الصدد ـ ان المأمون قال مرة لجلسائه : « لولا ما سبق لاسحق على السنة الناس وشهر به في الغناء عندهم لوليته القضاء بحضرتي فأنه اولى به واحق واعف واصدق تدينا وامانة من هؤلاء القضاة . » وقد ذكر الرواة ان اسحق الموصلي سأل المأمون ان يكون دخوله اليه مع اهل العلم والادب والرواة ـ لا مع المغنين ـ فأجابه المأمون الى ذلك . ثم سأله ـ بعد ذلك بفترة وجيزة ـ ان يكون دخوله مع الفقهاء فأذن له بذلك . وذكر المرزباني عن محمد بن عطية الشاعر قوله . « كنت عند يحيى بن اكثم في مجلس له يجتمع اليه فيه اهل العلم . وحضر اسحق الموصلي . فجعل يناظر اهل الكلام حتى انتصف النهار . ثم تكلم في الفقه فأحسن واحتج . ثم تكلم في الشعر واللغة ففاق من حضر . »

ولاسحق الموصلي شعر كثير منه ابياته التي انشدها بحضرة الرشيد عندما دخل عليه يوما وقال له الرشيد انشدني من شعرك :

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري
فذلك شيء ما اليه سبيل

أرى الناس خلاّن الجواد ولا أرى
بخيلا له في العالمين خليل

ومن خير حالات الفتى لو علمته
اذا نال خيرا ان يكون ينيل

عطائي عطاء المكثرين تكرما
ومالي ـ كما قد تعلمين ـ قليل

واني رأيت البخل يزري بأهله
ويحقر يوما ان يقال بخيل

وكيف اخاف الفقر او احرم الغنى
ورأى امير المؤمنين جميل

وله ايضا من قصيدة اخرى في المعنى نفسه :

يبقى الثناء وتذهب الاموال
ولكل دهر دولة ورجال

ما نال محمدة الرجال وشكرهم
الا الجواد بماله المفضال

لا ترض من رجل طلاقة قوله
حتى تصدق ما يقول فعال

فاذا وزنت فعاله بمقاله
فتوازنا فأخاء ذاك جمال

ويحدثنا اسحق بن ابراهيم الموصلي عن نفسه ــ على ما يقول ــ ياقوت في معجم الادباء ــ بقوله « بقيت زمانا من دهري أُغَلِّسُ الى هُشَيم فاسمع الحديث ، ثم اصير الى الكسائي فأقرأ عليه جزءا من القرآن ، وآتي القراء فأقرأ عليه جزءا ، ثم أتى منصورا زلزل فيطارحني طريقتين او ثلاثة ، ثم اتى عاتكة بنت شهيد فأخذ منها صوتا أو صوتين ، ثم أتى الاصمعي فأناشده ، وآتي ابا عبيدة فأذاكره ، ثم اصير الى ابي فأعلمه ما صنعت ومن لقيت وما اخذت واتغدى معه ، واذا كان العشاء رحت الى الرشيد ، »

ــ ٩ ــ

واما الجاحظ فأخبار انهماكه المنقطع النظير في اعماله الذهنية اشهر من ان تذكر ، فقد كان يكتري دكاكين الوراقين ليقرأ ما فيها من الكتب حسب تسلسل موقعها في الدكان بصرف النظر عن موضوعها او مؤلفها ويقضي فيها ليله ، وقد قيل انه لم يقع بين يديه كتاب الا استوفاه قراءة ، كما انه واصل القراءة والتأليف وهو في سن الشيخوخة المتأخرة بعد تجاوز الثمانين من عمره ، وقد توفي وهو في احضان الكتب ــ التي احبها ــ عندما انهالت عليه في احد الايام واودت بحياته ، ولعل ولعه في الكتب من حيث اقتناؤها ومن ناحية قراءتها يتجلى في وصفه الكتاب بعبارات انيقة مترفة وباسهاب ،

ــ ١٠ ــ

ويدخل ضمن هذا الباب ياقوت الحموي [٥٧٥ ــ ٦٢٦ هـ] الذي انصرف الى العلم وانقطع اليه انقطاعا ملحوظا منذ نعومة اظفاره وتحمل في سبيله المشاق ووعثاء السفر والفاقة والادقاع ، وقد وصف هو حالته التعيسة بأبيات منها :

وقفت وقوف الشك ثم استمر لي
يقيني بأن الموت خير من الفقر

فودعت من اهلي وبالقلب ما به
وسرت من الاوطان في طلب اليسر

وباكية العينين قلت لها أصبري
فَلَلْموتُ خيرٌ من حياة على عسر

ومع ذلك فلم تلن قناته ولم تثن الاحداث العظام انهماكه بالعلم . والى هذا المعنى يشير في ابيات اخرى منها :

تنكر لي دهري ولم يدر أنني
أعز وأحداث الزمان تهون

وبات يريني الخطب كيف اعتداؤه
وبت أريه الصبر كيف يكون

وقد قاسى في أسفاره العديدة وتنقلاته بين الحواضر الاسلامية آنذاك ما تعذر تصديقه احيانا ... « فلما انتهى الى خراسان .. وخرج عنها .. ومضى الى خوارزم .. وصادفه .. خروج التتر وذلك في سنة ست عشرة وستمائة فأنهزم بنفسه كبعثه يوم الحشر من رمسه . وقاسى في طريقه من المضايقة والتعب ما كان يكل عن شرحه ـ اذا ذكره ـ ووصل الى الموصل وقد تقطعت به الاسباب واعوزه أدنى المآكل وخشن الثياب ثم انتقل الى سنجار وارتحل الى حلب واقام بظاهرها في الخان الى ان مات . » وقد خلف وراءه ثروة فكرية وثقافية ما زلنا نعتز بها الى اليوم . منها :

كتاب ارشاد الالباء الى معرفة الادباء ، وكتاب معجم الادباء وكتاب معجم البلدان وكتاب معجم الشعراء . وكتاب المشترك وضعا المختلف صقعا . وكتاب المبدأ والمآل في التاريخ والدول . وكتاب المقتضب في النسب . وكتاب

اخبار المتقي.وقبل وفاته اوقف كتبه على مسجد الزبدي بدرب دينار بغداد وسلمها الى الشيخ عز الدين المعروف بابن الاثير صاحب الكامل في التأريخ .

كما يدخل في هذا الباب ايضا علي بن الحسن الاحمر صاحب الكسائي ومؤدب الامين . وقد ذكر ان الرشيد قال للكسائي « أنك كبرت ونحن نحب ان نودعك ولسنا نقطع عنك جاريك . فجعل الكسائي يدافع بذلك ويتلافى ان يأتيهم رجل فيغلب على موضعه الى أن ضيق عليه الامر وشدد وقيل له ان لم تأتنا انت من اصحابك برجل ارتدنا نحن لهم من يصلح . وكان قد بلغه ان سيبويه يريد الشخوص الى بغداد . فقلق لذلك . ثم عزم على ان يدخل الى اولاد الرشيد من لا يخشى ناحيته . فقال للاحمر « عزمت ان استخلفك على اولاد الرشيد » . فقال نعم .

قال ثعلب كان الاحمر يحفظ الاربعين الف بيت شاهد في النحو سوى ما كان يحفظ من القصائد . وكان مقدما على الفراء في حياة الكسائي . وله من التصانيف كتاب التعريف وكتاب تفنن البلغاء . وقيل انه لم يصيره الى احد قط من التأديب ما صار اليه . ومات قبل الفراء بمدة . ومن الطريف ان نشير هنا الى ان الاحمر عندما ادخل الى الدار وفرش له البيت الذي هو فيه بفرش حسن استغرب من ذلك غاية الاستغراب.وكان الخلفاء اذا ادخلوا مؤدبا الى اولادهم فجلس اول يوم امروا ـ بعد قيامه ـ بحمل كل ما في المجلس الى منزله مع ما يوصل اليه ويوهب له . فلما اراد الاحمر الانصراف الى منزله دعي له بحمالين فجعل معه ذلك كله . فقال الاحمر : والله ما يسع بيتي هذا ومالنا الا غرفة ضيقة في بعض الخانات ليس فيها من تحفظه غيري وانما يصلح مثل هذا لمن له دار وأهل . فأمر بشراء دار له وجارية . وحمل على دابة ووهب له غلام .

اهم مصادر البحث

ندون ما يلي اهم المصادر التي استقينا منها محتويات كتابنا هذا وقد آثرنا ان نذكر ارقام الصفحات والاجزاء [في حالة تعددها] ازاء كل مصدر بدلا من ان نذكر ذلك ـ كما هو المتبع ـ في حواشي الصفحات او هوامشها تفاديا لارباك القارىء بالانتقال من المتن الى الهامش لتسهيلها عليه في القراءة .

اهم المصادر

١ ـ الماوردي : **ادب الدنيا والدين** . شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي واولاده ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
والفقرات التي استشهدنا بها موجودة في الصفحات : ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٣ ، ٥٩ ، ٦٠ .

٢ ـ الجاحظ : **البيان والتبيين** : مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٥ ،
والفقرات التي استشهدنا بها موجودة في ج١ ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، . ج٢ ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٧٣ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

٣ـ **رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء** : بيروت . دار صادر ١٩٥٧ .
والفقرات التي استشهدنا بها موجودة في الصفحات التالية : ج١ ص ٩٩، ١٨٠، ١٨٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ . و ج٢ ص ٤٦، ٤٤ ، ٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٧ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٦٨ ، ٤٧٢ . و ج٣ ص ١٠ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٦، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٤٣ . و ج٤ ص ٤٩ ، ٥٥و ٧٨ ـ ٧٩ .

٤ ـ **زهر الآداب وثمرة الالباب** : لابي اسحق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني، بيروت ، دار الجبل ، ١٩٧٢ . والفقرات التي استشهدنا بها موجودة في الصفحات التالية : ١٤٣ ، ٢٥٠ ، ٣٠٣ ، ٥٤٣ ، ٦٤٧ .

٥ ـ **كتاب الفرج بعد الشدة** : للقاضي ابي علي المحسن بن علي التنوخي ، تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٨ . والفقرات التي استشهدنا بها موجودة في الصفحات التالية : ج١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ . ج٢ ص ٣٤ ـ ٤٢ ، ٦٧ و ٦٨ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ . ج٣ ص ١٣٣ ،

١٣٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٤ . ج٤ ص ٨٧ – ٩٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٥١ – ٢٥٥ .

٦ – **نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة** : للقاضي ابي علي المحسن بن علي التنوخي ، تحقيق عبود الشالجي ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٢ . والفقرات التي استشهدنا بها موجودة في الصفحات التالية : ج١ ص ٥٧ ، ٥٨ ، ١٠٣ ، ٢٧٦ . ج٢ ص ١٣٥ ، ١٣٦ . ج٤ ص ٧٥ ، ١٥٤ ، ٢٤٦ . ج٦ ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ص ٦٦ . ج٧ ص ٢١ ، ٥٢ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٦ ، ١٣٥ ، ٢٦٦ . ج٨ ص ٧٧ ، ١١٥ ، ٢٦٧ .

٧ – **شرح نهج البلاغة** : لابن ابي الحديد ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ؛ القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٧ . والفقرات لتي استشهدنا بها موجودة في ٢٠١ ص ١٠٢ – ١٤٩ .

٨ – لدكتور نوري جعفر : **الاصالة في شعر ابي الطيب المتنبي** ، بغداد ، مطبعة الزهراء ، ١٩٧٦ . والفقرات التي استشهدنا بها موجودة في الصفحات ١٦٩ – ١٧٣ .

٩ – **معجم الادباء** . ياقوت الحموي ، تحقيق احمد فريد رفاعي ، مطبوعات دار المأمون . ج١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٦ . ج٣ ص ٣٠ ، ٣١ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ٢٣٠ . ج٥ ص ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٥ . ج٦ ص ٥٨ ، ٢٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ . ج٧ ص ١٠١ ، ١٠٤ . ج١٠ ص ٧٣ ، ٧٦ . ج١١ ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٤ . ج١٢ ص ٦٠ ، ٩٠ ، ١٠٥ . ج١٣ ص ٦ ، ٨ ، ١١ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٩٢ . ج١٥ ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ . ج١٦ ص ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٢٥ . ج١٩ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٠ . ج

١٠ – **كتاب الامالي** لابي عبدالله محمد بن العباس بن محمد بن ابي يحيى بن المبارك اليزيدي . بيروت ، مكتبة المتنبي ١٩٦٩ ، الصفحات : المقدمة ص أ ، د ، هـ ، ي .

١١ – **كتاب الامالي** لابي علي اسماعيل بن القاسم القالي ، المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٤٣ . الجزء الاول : ص٤٦ ، ٤٧ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ١٤٥ ، ١٦١ . الجزء الثاني : ص ٤٥ ، ٤٦ ، ١١٥ ، ١٧٥ ، ١٧٦ . **وكتاب ذيل الامالي والنوادر** ، ص ١٢٧ ، ١٧٤ .

١٢ – الدكتورة عائشة عبدالرحمن – بنت الشاطيء . **تراجم سيدات بيت النبوة** بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٧٨ . الصفحات : ٦٧٤ ، ٦٧٩ ، ٧١٠ ، ٧١٣ ، ٧٢١ ، ٧٢٨ ، ٧٣٠ ، ٧٣٣ ، ٧٣٥ ، ٧٥٨ ، ٧٦٨ ، ٧٧٠ ، ٧٧٤ .

١٣ – **مقامات الحريري** : بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٥ ، ص ٢٩ ، ٣٤ .

ثبت الكتاب

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ــ بغداد
(١٥٢٢) لسنة ١٩٨٢

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م